الاستكبار والاستضعاف

من وجهة نظر القرآن الكريم

الشيخ

محمد تقي رهبر



معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية

في منظمة الاعلام الاسلامي

٢٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستكبار والاستضعاف

من وجهة نظر القرآن الكريم

الشيخ

محمد تقي رهبر



منظمة الاعلام الاسلامي

٢٦٠



(استکبار و استضعاف از دیدگاه قرآن)



الكتاب: الاستكبار والاستضعاف من وجهة نظر القرآن.

المؤلف: الشيخ محمد تقي رهبر.

النـاشر: منظمة الاعـلام الاسلامي ــ مـعاونـية العـلاقات الـدولية.

الجمهورية الاسلامية في ايران/ طهران. ص. ب. ۱۳۱۳/ ۱٤۱٥٥.

التاريخ: الطبعة الأولى/ ۱٤۰۷هـ ــ ۱۹۸۷م

طبع منه: ۲٥۰۰ نسخة.

المطبعة: سبهر/ طهران.

مقدمة الناشر:

هذا الكتاب يركز على مشكلة حضارية كبرى ربما كانت هي سرّ كلّ الآلام والمصائب التي أصيبت بها البشرية. ألا وهي مشكلة الاستكبار والاستعلاء الذي قد يبتلى به هذا الانسان فينسى كل ضعفه وكل احتياجه وكل خصائصه الانسانية من جهة، ويعمل على استضعاف الآخرين واستخفافهم لتنفيذ مآربه الضيقة من جهة أخرى.

وسيجد القارئ العزيز كيف يقف القرآن الكريم ضد هذه الصفة، ويعمل على محوها من وجود الانسان، ليعود انسانا حقا يسير في طريق علائه بهدي السماء، فإلى مطالعة هذا الكتاب الشيّق ندعو القرّاء الأعزّة.

منظمة الاعلام الاسلامي
معاونية العلاقات الدولية

المقدمة

في هذا الوقت الذي يدون فيه القلم بحث «الاستضعاف والاستكبار» ويسعى لشرح مفهوم هذين المصطلحين وأبعادهما وآثارهما، نرى مستضعفي الأرض ــ وخاصة مسلمي العالم ــ يعملون بوعي ضد المستكبرين والمعتدين الشرقيين والغربيين، و يخوضون صراعا مريراً ضدهم.

وهذه الحركة العادلة التي نشاهد علائمها وآثارها في جميع انحاء العالم، علينا ان نعتبرها حصيلة الاسلام والثورة الاسلامية في ايران، هذه الثورة التي هدّمت أقوى معاقل الاستكبار العالمي وخاصة الامبريالية الأميركية والصهيونية العالمية في منطقة الشرق الأوسط، وقامت ــ عبر اجبار العدو على التراجع والسيطرة على مواقعه الدفاعية المدعومة من الشرق والغرب ــ بانتزاع السلاح منه.

ونتيجة للضربات الموجعة التي وجهها الاسلام الى هياكل أصنام العصر، اهتزت قصور المستكبرين، مما أدى ذلك الى سلب راحة هؤلاء وتعالي نشيد حرية المستضعفين.

كل ذلك ببركة الاسلام واندماجه بالحياة مرة أخرى بشكل صحيح، بالضبط مثلما استطاع هذا الدين الالهي في بداية ظهوره في الجزيرة العربية ومن خلال الاعتماد على نفر قليل من المستضعفين والمؤمنين أن يهدم قلاع الاستكبار في كل من ايران وروما، ومن كان يدور في فلكه في المناطق الأخرى، وينهي سلطة المتجبرين والمستبدين.

وفي الوقت الذي نرى في الاسلام ــ اليوم ــ سنداً قوياً للشعوب المظلومة والمستضعفة، نرى الحكومات ومن يسمون بالحكام المسلمين، يدورون في فلك الاستكبار العالمي، ويستعبدون شعوبهم، معتمدين في ذلك على القوى الاجنبية والكافرة، كما كانت الحال عليه في ايران قبل انتصار الثورة الاسلامية المباركة، أي في عهد الشاه المقبور.

فبفضل الاسلام والثورة الاسلامية، وكما تفضل قائد المستضعفين الامام الخميني ــ حفظه الله ــ «فان النظام الملكي الفرعوني الذي دام ٢٥٠٠ عام قد سقط على أيدي محرومي ومظلومي التاريخ، وأغلق الى الأبد ملف الملكية وسلطة الشيطان الأكبر والشياطين المرتبطين به».[١]

نعم؛ يمكن للثورة الاسلامية في ايران أن تكون قدوة وأسوة لبقية المحرومين والمستضعفين وعلى الأخص مسلمي العالم كي لا يهابوا قدرة الاستكبار، وليعلموا بأن حركة الجموع المستضعفة تستطيع ــ بحق ــ أن تقضي على هؤلاء وتفوض سلطة الأرض الى عباد الله المستضعفين.

وهذا البحث الذي هو بين يديك عزيزي القارئ، انما يدور في هذا المجال، حيث سنتناول فيه «الاستضعاف والاستكبار» من وجهة نظر القرآن الكريم والروايات، ونتطرق الى عواملها وأبعادهما وسبل معالجتهما.

ونحن نسعى في بحثنا هذا ــ آخذين بنظر الاعتبار الثقافة الاجتماعية الأصيلة للاسلام ــ أن نوضح الجذور الفكرية والاجتماعية لظهور طبقتي المستضعفين والمستكبرين، آملين أن نرشد المستضعفين الى الطريق الذي يجب أن يسلكوه لكي يتحرروا من مخالب المستكبرين.

ويمكننا ــ عبر دراسة عميقة للبحوث القرآنية في هذا المجال ــ أن نتوصل الى النتيجة التالية: وهي انه لا توجد هناك مصطلحات أخرى كالمصطلحات الآنفة بحيث تتمكن من التحدث بوضوح عن هذه التجربة التاريخية التي أذاقت البشر ــ خلال آلاف السنين وليومنا هذا ــ ألوان العذاب. حتى ان كلمة «الاستعمار»

١ ــ من بيان للامام الخميني بمناسبة الذكرى العشرين لانتفاضة الشعب الايراني الدموية والتاريخية بتاريخ ١٥ خرداد عام ١٣٤٢ هـ.ش/ المصادف: ٥ حزيران ١٩٦٣م.

ـــ التي تبدلت اليوم الى مصطلح متداول ـــ صارت لا تعبر عن مدلولها الواقعي.
وبعد مطالعة هذا الكتاب سيتعرف القارئ العزيز على الأسرار والرموز الآنفة.

ومما يجدر ذكره في هذه المقدمة هو ان قائد الثورة الاسلامية في ايران الامام الخميني ـــ مدظله العالي ـــ اعتبر عام (١٩٨٣م) عاما للدفاع عن المستضعفين والمحرومين، ودعا حكومة وشعب الجمهورية الاسلامية في ايران لتقديم الخدمات لهذه الطبقة المحرومة والمعذبة التي عانت الكثير على يد الطاغوت.

وعلى هذا الأساس نرى هناك ضرورة ملحة، لخوض بحث «الاستضعاف والاستكبار».

ومما يجدر ذكره أيضا هو أن مايفهم عرفا من مصطلحي «الاستضعاف والاستكبار»، يتباين بدرجة كبيرة مع ما يعبر عنه القرآن الكريم والروايات؛ اذان المفهوم عرفا من هذين المصطلحين، يتعلق فقط بالأمور المادية ومستوى الحياة المعيشية، في حين ان ثقافة القرآن الكريم ثقافة عميقة ومبدئية وتحوي في طياتها الفكر والايديولوجية والعقيدة والعمل والاختيار والانتخاب والمسائل المادية والمعنوية.

اذن، فبحثنا هذا يبدأ ويستمر على أساس من هذه النظرة. ونأمل أن تكون مطالعة هذا الكراس ملهمة لأبناء القرآن الكريم، وان يحصل المستضعفون (الذين يعانون من نير سلطة المستكبرين في جميع أنحاء العالم) من القرآن الكريم على مفاتيح التحرر ويهدموا صرح وأسطورة الشيطان وأحابيل الاستكبار.

نسأل الله أن يعين المستضعفين في كفاحهم المقدس هذا.

منظمة الاعلام الاسلامي ـــ القسم السياسي

الاستكبار والاستضعاف من وجهة نظر القرآن

خلافا لسنّة الخلق التي تريد للنوع البشري أن يعيش بعيدا عن التفرقة والظلم، وباتجاه هدف واحد وعقيدة مشتركة، فان تاريخ البشر كان على الدوام حافلا باختلال «التعادل الاجتماعي» واستفحال ظاهرة التفرقة والاستغلال والاعتداء والاستبداد في المجتمعات البشرية.

وقد بيّن تاريخ علم الاجتماع عوامل و دوافع هذه الظاهرة المؤسفة، كما أن آثار تلك الظاهرة وانعكاساتها قد فسرت ودونت في عدة كتب.

ان المصطلح الذي اصبح متداولا خلال القرن الأخير، وجسّد سلطة المستغلين، يتمثل بـ «الاستعمار»[2] أو كما يعبّر عنه بـ «كلنياليسم» حسب الاصطلاح الغربي، حيث تبدل عبر تغيير شكله حسب مقتضيات المحيط والظروف الزمانية الى «الاستعمار الحديث».

لقد قيل الكثير عن مصطلح «الاستعمار» ودوافعه ونتائجه، كما ألفت كتب عديدة بهذا الخصوص. ومن هنا لانرى ضرورة للحديث مجددا عن هذا المصطلح، بالضبط مثلما لانرى في أسلوب البحث هذا حلانهائيا.

وما نهدف اليه هنا هو بيان الحقيقة التالية وهي: هل ان الثقافة السماوية الأصيلة ــ وخاصة القرآن الكريم الذي يعتبر مكملا لجميع الشرائع

٢ ــ الاستعمار لغة يعني طلب الإعمار والبناء، وقد فقد اليوم معناه الأصلي فصار يعني تسلط الدول الكبيرة القوية على الدول الصغيرة والضعيفة لاستغلال ثرواتها الطبيعية وقواها البشرية بحجة إعمارها والأخذ بأيدي شعوبها نحو الرقي والتقدم.

والبلاغة والفصاحة له اصطلاح آخر بحيث لايدرك الآخرون عمقه ومفهومه بشكل كامل، وعلى الأصول ظل العمق الفكري والتوجيهي للقرآن في هذا المجال مجهولا في سوق السياسة والاجتماع على المستوى الدولي؟

نحن نعتقد ان الشطر الأخير من الحديث انما يمثل اجابة صريحة، وانّ من يسلك هذا السبيل سيؤمن ويعترف بما توصل اليه محققونا.

فالقرآن الكريم ــ الذي أعطى لأتباعه أكمل الدروس وأفضلها في جميع المجالات (العقائدية، الثقافية، الاجتماعية، التربوية، السياسية، العسكرية، الاقتصادية وو...) وضمن تحقيقه حول المجتمعات البشرية ــ لايستخدم في تحليلاته الرامية الى توضيح الخطوط الفكرية اللامشروعة ــ التي انتهت الى نهب الجموع المستضعفة وسلطة المتجبرين وأقطاب الكفر والشرك ــ مصطلحات هي في الواقع مستعارة أو تشبيهية، أو مبهمة أو قابلة للتبرير، أو مصطلحات مرحلية ومؤقتة. اضافة الى أنه يعرض من خلال هذه المصطلحات ــ مع الأخذ بنظر الاعتبار الجذور اللغوية والابعاد الواسعة لها ــ الأهداف والأغراض المقصودة بوضوح كامل وصراحة تامة، وفي نفس الوقت بصورة منطقية وعميقة ومقترنة بالدليل، ويعطي للبشر على أساس منها التحذيرات والتوجيهات اللازمة.

هذا بينما يسود ــ اليوم ــ الشعوب الاسلامية في العالم، ظلام دامس منشؤه الاستكبار العالمي الذي يجلب الويلات والمصائب.

ان الحل الوحيد الذي تستطيع الشعوب المضطهدة والمنهوبة ثرواتها والمحرومة، ان تستعيد من خلاله حياتها، يتمثل ــ في الواقع ــ بالمعرفة الصحيحة للاسلام واللجوء الى القرآن الكريم والأجواء الالهية القوية.

وعلى أي حال؛ فان موضوع بحثنا هو «الاستكبار والاستضعاف» وان الكلمات التي انتخبناها لبحثنا هذا تحكي نفس التصور والارشاد القرآنيين في المجالات الاجتماعية والسياسية من وجهة نظر الطبقات والحكومات، بحيث السماوية ــ قد تحدثت عن مفهوم الاستعمار والاستثمار وما شابههما من الكلمات والمصطلحات الأخرى أم لا؟

فان كان الجواب ايجابا، فهل ان مايطرحه القرآن الكريم هو نفس الأمر الذي طرحه الآخرون فيا بعد، أم ان القرآن واستنادا الى امتلاكه لميزة الاعجاز

نستطيع عبر دراسة أبعاد الكلمات المذكورة وتوضيحها وتطبيقها على الواقع القائم في العالم ـــ وخاصة العالم الاسلامي ـــ أن نتوصل نتيجة لهذا البحث الى طريق أساسي لتقرير مصير أفضل، بحيث يحمل لنا قيمة الحياة والموت.

ان القرآن الكريم ـــ وبهدف ابراز الأطماع السلطوية وعواملها ونتائجها ـــ لم يستخدم ـــ كما أسلفنا ـــ مصطلح «الاستعمار» المحاط بالابهام والتعمية، لأنه

«... **كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير**» (هود: ١)

كتاب أنزله الله الحكيم العليم، وبيّن فيه الحقائق والدقائق بالتفصيل. بل ان هذا الكتاب السماوي قد استخدم مصطلحات أبرزها مصطلحا «الاستكبار والاستضعاف».

و توجد هناك أيضا مصطلحات مثل: «الاستخفاف، البغي، الطغيان، العلو، الجبروت و... الخ» يستخدمها القرآن في بعض الأحيان لاظهار مقاصده،غير انه يمكننا ان نضع جميع هذه الكلمات والمصطلحات في ظل الاستكبار والاستضعاف ومع ذلك فان كلاً من المصطلحات الآنفة الذكر، لايخلو من عناية خاصة، وهي جميعا قابلة للتأمل في حدّ ذاتها.

وسنتطرق الآن الى مصطلحي «الاستكبار والاستضعاف»، و نقيم بحثنا على أساس من موارد استخدام هذين المصطلحين، وسنستعين عند الضرورة بالمصطلحات الاخرىٰ اذا ما تطلب البحث ذلك.

وسنبحث في الوهلة الأولى في مصطلح «الاستكبار» لأن «الاستكبار» هو ـــ في الواقع ـــ مقدمة للاستضعاف، ومن ثم سنتطرق الى «الاستضعاف».

القسم الأول
الاستكبار

ما معنى الاستكبار؟

انّ كلمة «الاستكبار» مشتقة من «الكبر» بمعنى التكبر، أي أن يرى الانسان نفسه كبيرا. وان التكبر والغرور يعتبران نوعا من التمرد والطغيان اللذين يبتلى بهما الانسان في بعض الأحيان.

فالانسان ينسى ــ احيانا ــ ماهيته، ينسى من أين جاء، وماذا كان يملك، أو ما الذي يملكه اليوم، والى أين يسير، وماذا سيحل به؟

الاستكبار، خلافة ابليس.

ان هذه الحالة ابتلي بها ابليس قبل غيره من أفراد البشر. والآيات القرآنية متى ماتحدثت عن استنكاف ابليس من السجود لآدم الذي كان آية للخلقة الالهية وخليفة له في الأرض، فانها تشير الى تكبر الشيطان وغروره.

ومن الضرورة بمكان أن نشير هنا الى بعض الآيات في هذا المجال، عسى ان يعود هذا بالفائدة على بحثنا.

١ــ **«واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الآ ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين»** (البقرة: ٣٤)

يستدل من هذه الآية على ان «الاستكبار» كان قبل كل شيء صفة لإبليس وأنه ينتهي في جميع الأحوال الى الكفر. نعم؛ الكفر الذي يعتبر أكبر مستنقع يسقط فيه الانسان.

٢ــ أما آيات سورة الأعراف فتعطي توضيحا أكبر لدوافع الاستكبار

وآثاره. وفيما يلي نقدم نصوص تلك الآيات:

«قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك؟

قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين!

قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين.

قال أنظرني الى يوم يبعثون.

قال انك من المنظرين.

قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد اكثرهم شاكرين.

قال آخرج منها مذؤوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منهم أجمعين»

(الآيات ١٢ الى ١٨)

رغم ان الآيات الآنفة تشرح قصة ابليس وخروجه من الجنة، ولكن لما كانت الصفة الابليسية، صفة للأباليس الذين يظهرون بمظهر انساني، ويلعبون دور خلافة الشيطان في الأرض، فان الاهتمام بالملاحظات الواردة في هذه الآيات، يستطيع أن يكون تحذيرا لبني الانسان لكي يتعرفوا على أعدائهم، وليعلموا بأن المستكبرين الذين هم أتباع الشيطان انما يلعبون نفس دور الشيطان. ومادام هناك بشرعلى وجه الأرض، فستبقى هذه الحالة أيضا.

أما الملاحظات فهي:

١. دوافع الاستكبار، والتفرقة العنصرية.

لاحظنا أن دوافع استكبار ابليس كانت متمثلة بنظرته الخاطئة الى خلقته وخلقة آدم: « **خلقتني من نار وخلقته من طين** » اذ ان مسألة أفضلية النوع والعنصر، التي كانت أول عامل جعل أول مستكبر في العالم (أي الشيطان) يتمرد على الله ويتكبر على آدم، هي اسطورة ظلت قائمة خلال آلاف السنين في نسل الانسان، وتبعتها مسائل أخرى كمسألة الأسود والأبيض، والعرب والعجم، والشروط الاقليمية والجغرافية و. . . الخ.

ولو ألقينا نظرة على التفرقة العنصرية في أميركا وفي مناطق أخرى من العالم، والادعاءات الفارغة للصهاينة العنصريين، والتصورات الواهية للشياطين

البيض في أوروبا، واذلال الملوّنين وتحقيرهم وقتلهم ونهبهم على أيدي مستكبري الشرق والغرب، لتعرفنا بسهولة على هذا السرّ القرآني وهو كيف ان التصورات الابليسية أدت بشياطين الأرض الى التجبر على عباد الله. ومن هنا ولغرض ازالة التفرقة فاننا نحس بحاجة البشر الماسة الى رسالة شعارها: **«ان أكرمكم عندالله أتقاكم»** و: **«لافضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى»**.

٢. الكفر والاستكبار

والملاحظة الأخرى هي ان الاستكبار يستلزم الكفر. والكفر له مراتب، أولها: الغرور وتجاهل أمر الله والاستنكاف عن طاعته. يقول سبحانه وتعالى واصفا الشيطان: **«وكان من الكافرين»**.

و رغم ان الشيطان ــ حسب ماتفضل به أميرالمؤمنين الامام علي(ع) في خطبته القاصعة ــ قد عبدالله ستة آلاف سنة، إلاّ أنه وبسبب تكبره مدة ساعة واحدة قد طرد من حضرة الله.

والآن نتساءل: ترى ماهو مصير الأشخاص الذين لايؤمنون بالله ولا بأصل واحد من أصول عبادته، ولا يحترمون حقوق الناس، ويفتقرون الى ذرة من الضمير والوجدان الفطري؟

انهم مستكبرون، يرون في المال والسلطة والشهوة رباً لهم، وفي إراقة دماء الناس الأبرياء لذة وحياة.

ولتقويم أبعاد جرائم أقطاب الكفر والاستكبار العالميّين يكفي أن نلقي نظرة على ممارسات القوى العظمى وعملائها في جميع أنحاء المعمورة.

ولهذا السبب يعتبر هؤلاء خلفاء للشيطان، بل خلفاء صادقين تعدّوا ما كان يقوم به أستاذهم، وأزالوا بممارساتهم بقع العار من ملف ابليس!

يقول الامام علي(ع) في جانب من خطبته المهمة المعروفة بـ «القاصعة»:

«فعدوّ الله امام المتعصبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية، ونازع الله رداء الجبرية، وادّرع لباس التعزز، وخلع قناع التذلل. ألا ترون كيف صغَّره الله بتكبّره، ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعدّ له في الآخرة سعيرا...».

(الخطبة ١٩٢ــ نهج البلاغة، صبحي الصالح)

كما جاء في جانب آخر من تلك الخطبة:

«فمن ذا بعد ابليس يسلم على الله بمثل معصيته؟ كلا! ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشراً بأمر اخرج به منها ملكا، ان حكمه في أهل السماء والأرض لواحد، ومابين الله وبين أحد من خلقه هوادة في اباحة حمى حرمه على العالمين».

نعم؛ ان مصير المستكبرين ليس نار جهنم فحسب، بل انهم سوف لاينجون في هذه الحياة ــ ايضا ــ من العقاب الالهي وغضب الجماهير المستضعفة.

ترى أي مستكبر استطاع أن يصمد في وجه مثل هذه العواصف؟ وأي جبار استطاع أن يسلم من عقاب الجماهير المستضعفة؟ وأي قصر من قصور المستكبرين لم يسقط بأيدي المحرومين؟ وأي اللذات والشهوات ظلت باقية للمتكبرين والمغرورين؟

لقد حصلت هذه الأمور في الماضي وستحصل ــ دون شك ــ في المستقبل **«وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»**.

ان شعلة واحدة تكفي لا ثارة غضب الجموع المحرومة ودفعها لهدم معاقل المستبدين والمتكبرين.

٣. المؤامرات المتواصلة والتاريخية للاستكبار

لقد وردت ملاحظة مهمة للغاية وقابلة للتأمل في الآيات القرآنية التي تبيّن قصة ابليس. فابليس يطلب من الله أن يتركه وشأنه، فيلبي الله سبحانه وتعالى طلبه! بعدها يعلن ابليس انه سيعمل ــ عبر مؤامراته المتواصلة والشاملة ومن ست نواح ــ على جرّ عباده سبحانه و تعالى الى السقوط والانحطاط.

وفي آيات أخرى من القرآن الكريم يؤكد العلي القدير مخاطبا ابليس انه لن يسمح له ببسط سلطته على عباده: **«انّ عبادي ليس لك عليهم سلطان»**.

ونظراً لأنّ قصة هذه المؤامرة، وحصول ابليس على الفرصة، وحدود سلطته، لها علاقة تامة بمصير المستضعفين والمستكبرين على مرّ التاريخ، فان الدقة في المسائل الواردة في هذا الجزء من البحث لهي ضرورية جدا.

١. استمرار مؤامرات المستكبرين.

٢. الامهال الالهي.

٣. حدود سلطة الشيطان.

* * *

١. استمرار مؤامرات المستكبرين

ان المستكبرين أقسموا مثل الشيطان على السيطرة على مستضعفي الأرض، والسعي الى اضلالهم، وعدم اضاعة أية فرصة تتوفر لديهم في هذا المجال.

فهؤلاء الشياطين ـــ ومن خلال الظهور بمظهر انساني ـــ يوجدون موانع متعددة أمام الذين يبحثون عن طريق الله، ويدبرون أنواع المؤامرات لأسر هؤلاء.

فأحيانا يلجؤون الى القوة، وأخرى الى الثروة، كما يلجؤون أحيانا الى التطميع، وفي أحيان أخرى الى التهديد والضغط والتعذيب والسجن والقتل. مرة من الداخل وأخرى من الخارج، يهاجمون ويهربون مثل الخنّاسين.

انهم يستخدمون جميع الأساليب ابتداء بالثقافة والسنن الاجتماعية وانتهاء بالكذب والخداع. مرة يهاجمون مباشرة وأخرى يعملون من خلف الستار.

وكمثال على ذلك لنلق نظرة على القوى العظمى الشرقية والغربية وخاصة الامبريالية الأميركية، لنتعرف على مؤامراتها العسكرية ووكالاتها التجسسية وعملائها من الملوك والأمراء والحكام وبقية الشياطين العملاء، وسعيها الحثيث لفرض الثقافة الاستعمارية والاستكبارية الكاذبة والمبتذلة بعناوين مختلفة مثل: (التجدد) و (التحضر)، وأيضا مسخ الشخصية، وتجريد الشعوب المضطهدة من هوياتها عبر الاستعمار الفكري والثقافي واشاعة الفساد والفحشاء واللاأبالية والتفرقة والنفاق والتي تعد بمجموعها مقدمة للمصائب والويلات كافة.

هذه الأمور وأمثالها، انما هي أساليب خادعة لم يتخلّ عنها المستكبرون والمتجبرون قط. ومتى ماضعف أحدها استبدلوه بآخر وستبقى هذه الحالة قائمة طالما تكون هناك حياة على وجه الأرض.

ومن هنا كانت معرفة هذه المؤامرات والمخططات والأحابيل أول شرط للتحرر من براثن المستكبرين.

٢. الامهال الالهي

والمسألة الأخرى التي يلزم الاشارة اليها هنا هي فلسفة الامهال، ومنح الله الفرصة للشيطان ومن يقتدون به.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ترى لماذا منح الله سبحانه وتعالى فرصة لأول مستكبر في العالم (أي ابليس) ومن ثم لأتباعه وبقية مستكبري التاريخ؟ ألم يكن من الأفضل أن يوقفهم عند حدّهم لئلا يتربصوا في طريقه جلّ شأنه ويجرّوا عباده الى الضلالة والانحراف؟

الحقيقة هي ان تكامل الانسان مرهون بالنضال والكفاح، فوجود منافس أمام الانسان يؤدي بذلك الانسان، أن يظهر قواه الكامنة فيه، ويعود عليه بتجارب كثيرة، اذ يجعله واعيا، ويدفعه للتفكير في الحلول المناسبة.

بديهي أن هبوط ابليس الى الأرض متزامنا مع هبوط آدم الى هذا المسكن الجديد، ومواصلته لدسائسه ووساوسه، ليس من باب الصدفة، بحيث يستنكف ابليس من السجود لآدم، ويستجاب بعد ذلك طلبه، ويتمكن بذلك من مواصلة مؤامراته على أفراد البشر الى يوم القيامة.

انّ الله سبحانه وتعالى منح ابليس فرصة يقف فيهامع آدم و ذريته وجها لوجه لكي يميّزوا أعداءهم. ذلك ان معرفة العدو تشكل خطوة أولى نحو تكاملهم وتساعدهم على معرفة أحابيل ابليس ومؤامراته وافشال مخططاته بوعي وشعور كاملين، والخروج من السبات الذي يشل حركة الانسان ويجره في نهاية المطاف الى السقوط والانحطاط. عليهم أن يستعينوا بتوجيهات الله تعالى اليهم، ويستفيدوا من الطرق التي يفتحها عالم الغيب أمامهم عند المصاعب والشدائد ليسوقهم بها الى عالم النور. وليصل امتحانهم وتكاملهم الى مرحلتها النهائية، حيث يقول سبحانه وتعالى في هذا الخصوص: **«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين»**. (العنكبوت: ٦٩).

ولو نظرنا من هذه الزاوية الى مسألة «الإمهال الالهي» للمستكبرين الذين يقفون وجها لوجه مع المستضعفين، لاستطعنا الحصول على مسوّغ معقول لمسألة إمهال هؤلاء.

٣. حدود سلطة الشيطان

يلزم محاربة هؤلاء الشياطين والجهاد ضدهم. فالقوى المستضعفة في الأرض ليست قليلة.

ان المستكبرين يكوّنون أقلية في جميع الأحوال، فيما يشكل المستضعفون أكثرية. وان تلك الأقلية تقوى وتنمو على أيدي هذه الأكثرية، حيث ان القوى العسكرية والبنية المالية وغيرها من الامكانات الأخرى هي في الحقيقة حصيلة آلام هؤلاء المستضعفين، لكنها في النهاية تستخدم ضدهم.

انهم «أي المستكبرين» يهيئون أسلحتهم من عرق جبين المستضعفين! فجنود جبهة الكفر والاستكبار هم من أبناء المستضعفين، فيما يتم اعداد الأسلحة والمعدات العسكرية من دماء هؤلاء الناس، ذلك ان المستكبرين لايستخدمون طاقاتهم الانسانية، ولا يملكون شيئا من عندهم ليوظفوه في هذا الطريق. انهم يملكون أشياء كثيرة! لكنها في الحقيقة نابعة من الناس، الناس المستضعفين والفقراء والأميين والمحرومين الذين سلب منهم كل شيء ويتعرضون للمؤامرات في كل مكان، وتراق دماؤهم في جميع المناسبات.

ولذا يجب على المستضعفين أن يخوضوا كفاحا ضد المستكبرين، ويجردوهم من أسلحتهم، ويقرروا مصيرهم بأنفسهم، لأنهم هم أصحاب القوة والقدرة.

ومثل هذا الكفاح يكون رمزا لتعالي هؤلاء وتكاملهم، ومجالا للاختبار، فيما يكون تجاهله مقدمة لعقوبات أكبر، وتسلط أكثر، كما يقول جلّ وعلا في إحدى آيات القرآن الكريم:

«واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا».

(الاسراء: ١٦)

طبيعي ان هذه العقوبة الالهية، تأتي بعد ظلم يمارسه أهل قرية ما بحق أنفسهم **«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا».** (الإسراء: ١٥)

«ان الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون». (يونس: ٤٤)

والنتيجة الحاصلة هي

أ ـــ ان سلطة الاستكبار ابتداء من ابليس وانتهاءً بآخر ورثته، ليست بدرجة بحيث لايمكن التخلص منها، أو أنها سنّة الهية.

ب ـــ وهذه السلطة لاتحظى بتأييد الله، ولهذا السبب يدعو الله سبحانه وتعالى عباده الى عدم الاستسلام، ويأمرهم بالتمرد على شياطين الجن والانس.

ج ـــ وهذا الكفاح هو رمز للتكامل والتحرك وظهور الكوامن، وتفتّح استعدادات الناس، والا لبقي الانسان على حاله جامداً، لايفعل أي شيء.

والانسان قادر على الخروج من سلطة الأباليس، فيما تستطيع الجموع الانسانية ـــ عبر الايمان بالله ونصره، والاستعانة بالقوى الكامنة في ضمائرها ـــ أن تتحدى المستكبرين، وتخوض صراعا ضدهم، وتخرج منتصرة من المعركة، أما تقاعسها في هذه المهمة فيعني دعم الخصم الشرير على حسابها نفسها، والتعامل معه.

واننا سنعطي خلال البحوث القادمة توضيحا أكثر في هذا المجال، وذلك من خلال الاستناد الى الآيات الاجتماعية للقرآن التي تتحدث عن «الاستضعاف والاستكبار».

و بصورة عامة تلزم هنا دراسة عدة أمور، هي :

١. دوافع الاستكبار.
٢. عناصر الاستكبار وعوامله.
٣. آثار الاستكبار.
٤. مواجهة الاستكبار.

١. دوافع الاستكبار

ان دوافع الاستكبار ـــ كما أشرنا اليها باجمال في البحوث السابقة ـــ تتمثل بالغرور والتكبر والاستبداد. وعلى هذا الأساس أشرنا الى الآيات التي تتحدث عن استكبار ابليس، وشرحنا الملاحظات الواردة فيها.

والسؤال هو: من أين ينشأ الغرور والتكبر، وما هي عواملها؟ قلنا سابقا ان أول مستكبر في عالم الخلقة (ابليس) وقع في مصيدة الكبر، وانضم الى زمرة

المستكبرين اثر تأكيده على جنسه، وعلى التفريق بين الطين والنار، والنظر الى القيم بمثل هذه المعايير والمقاييس. وأضفنا، أن الاستناد الى نوعية الجنس واللون والاقليم كان على مرّ التاريخ محورا للاستكبار.

ولذلك لانرى ضرورة لاعطاء توضيحات أخرى عن هذا العامل، بل سنتناول بقية العوامل الأخرى.

الكفر والاستكبار

عندما يدور الحديث عن المستكبرين في كثير من موارد القرآن، نلاحظ ان هناك اشارة الى الكفر أو الشرك أو النفاق.

وتستطيع دراسة هذه الموارد أن تكون دليلا لنا في عملية تحديد علل ظهور الاستكبار ودوافعه.

والآن؛ لنتأمل الآيات التالية:

«وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين». (الجاثية: ٣١)

يدور الحديث هنا عن أشخاص ابتلوا بعقوبة الآخرة.

وتدل هذه الآية على ان الكفر هو من دوافع الاستكبار، وان الاستكبار هو مجال للجرائم والجنايات.

«الهكم آله واحد فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لاجرم أنّ الله يعلم مايسرون وما يعلنون انه لايحب المستكبرين».

(النحل: ٢٢ــ٢٣)

ان انكار المبدأ من جهة، وانكار المعاد والحياة الآخرة، والعقوبة والجزاء الالهي من جهة ثانية، يفضحان سر الاستكبار.

فلو تأمل الانسان بداية خلقته، وفكّر في مصيره، وتعرّف على خالقه، وتذكر عجزه وضعفه أمام الله في حالات الفقر والاحتياج والمرض والمصائب والعجز والموت والمعاد والآخرة، لخضع لربه القاهر، وتخلى عن كبره وغروره.

ان الرب (الذي على الانسان أن يؤمن به) له صفات الجلال والجمال. كما أن معرفة هذه الصفات ــ وخاصة قهره وجبروته سبحانه وتعالى ــ تستطيع أن توجد اكبر تحول في نفس الانسان وروحه.

ومن الضرورة بمكان أن نتأمل هنا بعض الآيات في هذا الباب، والتي تتناول جملة من صفات الله عزّوجلّ، وتستطيع أن تكون توجيها قيّما في هذا المجال:

«هو الله الذي لا إله الاّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم* هو الله الذي لا إله الاّ هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار سبحان الله عما يشركون* هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبّح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم».

(الحشر: ٢٢ــ٢٤)

هذه الآيات تفتح للبشر أبوابا من معرفة الله، و تجلي تلك المعرفة في الابعاد الايمانية والعملية والتربوية والفردية والاجتماعية. وبتعبير أدق: ان الحديث فيها يدور عن «الاسماء الحسنى» والأسماء المقدّسة والرائعة لله سبحانه و تعالى أسماء وصفات على العباد أن يعرفوها ويفهموها ويستخدموها في واقع الحياة، كي تتحدد مواقفهم العملية أمام الله وعباده، وينظموا منهج حياتهم على أساس منها.

ــ انّ الله واحد لاشريك له.

ــ وهو عالم الغيب والشهادة وشاهد على كل شيء وفي جميع الأحوال.

ــ انّ رحمته (الخاصة والعامة) هي من أبرز صفاته.

ــ وهو الحاكم المطلق. ملك، لاكالملوك المتجبرين والظالمين والعاجزين، بل انه ملك ومالك في الحياة الدنيا والآخرة، وهو قدير وكبير وجبار. ورغم انه يملك قدرة مطلقة، إلاّ أنه سبحانه «سلام» في نفس الوقت، أي انه منزّه عن كل عيب ونقص، لايظلم العباد، وان أجواءه هي ملجأ وملاذ للمخلوقات كافة.

فهو خالق، ومصور، تسبح له جميع ذرات العالم وعوالم الوجود كافة (المجردة منها والمادية) وهو عزيز وغالب وقاهر وحكيم وعالم، يعمل على اساس من حكمته وعلمه ورأفته (لاكما يفعل أصحاب القوة على وجه الأرض) وان كبرياءه متزامن مع وجوده اللامتناهي (لامثل المستكبرين الذين ربطوا الكبر بأنفسهم زيفا).

والملاحظة الأخرى هي أن القرآن يتحدث ــ بشكل رئيس ــ عن

الصفـات الالهية التي تدور حول محور الرحمة واللطف اكثر مما يتـحدث عن جبروته سـبحانـه تعالى و كـبريائه ومـلكوتـه. وهذا هو تحذيـر آخر للانسـان الذي يريد أن يـكـون مظهرا لأسماء الله وصفاتـه «خـليفة الله»، اذ عليـه ان يـتحدث عن الرحمة والعطـف والحكمة والعلم أكثر ممـا يتـحدث عن القدرة والسـلطة، ويقيم حياته على هذا الأساس، ومتى ما تحدث عـن القـدرة والسلطة، فيجـب أن يكـون هدفه إراءة السلطة الالهية لا سلطته هو.

نستنتج مما تقدم ان التواضع والخضوع هما شرطان في نظام العبادة، ويلزم تجنب الكبر والغرور.

«انّ الذين عند ربّك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون».

(الاعراف: ٢٠٦)

«فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسئمون»

(فصلت: ٣٨)

«لن يستنكـف المسيح أن يكون عـبداً لله ولا الملائكة المـقربون ومن يستـنكف عن عبادتـه ويسـتكبر فسيحشـرهـم اليه جميـعـا * فأما الذيـن آمـنوا وعملوا الصـالحات فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا».

(النساء: ١٧٢ــ١٧٣)

انّ الآيات الآنفة هي اشـارة لأهـل الـكتاب وتحذير لهـم، هـؤلاء الـذين كانوا يقولون بربوبية المسيح(ع)، ويتصورونه إلها أو ابناً لله! حيث تدعوهم للتخلي عن مثل هذه التصورات الباطلة. فالمسيح(ع) كان عبداً لله، ولم يدّع الربوبية قط، كما لم يستنكف عن طاعـته سبحانه وتعـالى، ذلك ان مثل هذه الادعاءات لا تصدر عن أي نبي من الأنـبياء، ولا أي انسان مـؤمن، انما تصـدر عن المستكـبرين أمثال فرعون الذي قال: «أنا ربكم الأعلى!».

غير أن أمرهم يفتضح في النهاية، ولن يبقى لديهم ما يتحدثون عنه.

أمـا الأنـبياء فهم «عـبـاد الله الصالحون» حيث تتـوقـف عزتهم وشرفهم وكرامتهم على عبادة الله وطاعته. وقد تعاملوا مع الناس على أساس من هذا الأمر. في حين ضـاع المستكـبرون في متـاهـات الغرور والـتكبر والقـدرة والسـلطة، ونسوا

أنفسهم، وأصيبوا بالهذيان في نهاية المطاف.

النفاق والاستكبار

ولمواصلة بحثنا حول دوافع المستكبرين، نرى أن نشير هنا الى آية حول المنافقين، هؤلاء الذين يخفون كفرهم الداخلي تحت غطاء الايمان، ولا تتباين ممارساتهم مع مايقوم به الكفار والمشركون.

«واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوا رؤُوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون».

(المنافقون: ٥)

هذه الآية ترى في الخصلة الاستكبارية، خصلة للمنافقين، تصرح بأن هؤلاء المنافقين المستكبرين يقفون مانعا في طريق الله، فلاهم يسيرون فيه ولا يَدَعُونَ الآخرين يسيرون فيه.

المستكبرون عقبة في طريق الله والخلق

انّ آثار الاستكبار والطغيان على سنّة الخلق ومشرّع العالم، لا تنحصر في نطاق فردي أو تقتصر مثلا على الأبعاد: الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية، بل لها أبعاد أوسع.

وعلى هذا الأساس لها تأثير عميق في: الرؤية والاعتقاد، والثقافة والتقاليد، والفكر والعمل، والأخلاق، وبقية المجالات الفكرية والعقائدية والعملية للبشر.

ومن هنا كان علينا أن نعتبر الاستعمار والاستضعاف الفكري والثقافي كارثة منشؤها سلطة الاستكبار التي تفوق كل أنواع الاستبداد والاستغلال. ان المستكبرين يمسخون الشخصية الفكرية للمستضعفين للأسباب التالية:

أ. ان ايديولوجية الاستكبار التي تتمثل في سيطرة الكفر والشرك والنفاق على العقول، تتناقض مع ايديولوجية عباد الله المستضعفين، وتسعى للقضاء عليها عبر مؤامراتها المتواصلة.

فالاعتراف بالله والقيامة والرسالة والعدل والأخلاق ليس له مفهوم عند المستكبرين، في حين ان طريق الله وعباده يقوم على قبول العبودية لله وقبول حكم

الرسالة الروحانية والالهية، والتحرر من سلطة الأفكار المادية. ولهذا السبب يسعى المستكبرون ــ دائما ــ لايجاد الموانع خوفا من أن تقترب ارواح الناس من الله والمعارف السماوية، ذلك ان حياتهم تتوقف على هذا الأمر.

ب . ان سلطة الاستكبار تبقى بلا منافس في الحالات التي يكون فيها المستكبرون ــ من وجهة نظر الناس ــ مظهرا حقيقيا للقدرة والمحاور الاجتماعية، وقبلة للآمال، ومقررين للمصائر، ومقاييس للقيم.

ولا تستمر هذه السلطة مالم يتم الابقاء على هذا التصور لدى الناس وهو انه لا توجد ــ عدا أقطاب القدرة والثروة ــ أية قبلة أخرى، ويجب الاتجاه اليها وعبادتها! وفي هذا المضمار تكون الأصنام والمعابد المزيفة أدوات تستطيع أن تؤثر في عملية ترسيخ أسس الاستكبار.

و على أساس من هذه الثقافة يجب على الناس أن يعبدوا الأشخاص الأقوياء أو الأصنام التي يملكها هؤلاء، لا أن يعبدوا الله الواحد!

لذلك فان المستكبرين يجيزون لانفسهم أن يكونوا موانع في طريق الله، مثلما يقف الله مانعا من تحقيق أغراضهم وان هذا النزاع ينتهي في نهاية المطاف لصالح أحد الطرفين. ولم يحدث قط أن وقف المستكبرون موقف المتفرج أمام الأمواج العاتية للأفكار الالهية، أو تخلّوا عن مواقفهم العدائية منها، لأنهم يرون في هذه القاعدة عدواً لدوداً لهم.

ولا عجب ان يرى الاستكبار العالمي (بمختلف أجنحته وما يملكه من جبهات سواء الامبريالية أو الاشتراكية) في الاسلام أكبر عدو له، خاصة بعد التحرك العظيم للاسلام خلال الثورة الاسلامية في ايران وانتفاض الأمة الاسلامية.

ان ظهور الاسلام من جديد في الواقع الاجتماعي، وتبلوره في جهة تقرير مصير المسلمين، ودعوته لهؤلاء للانتفاض والتمرد على المتسلطين والناهبين التي رأينا تجربتها العملية في استقلال ايران و تحررها من التبعية للقوى العظمى، وتحطيمها لقواعد الامبريالية، واتساع نطاق هذه الحركة بحيث شملت دولا أخرى مثل العراق ومصر وافغانستان وو... الخ، كل هذه الأمور أدخلت الرعب في قلوب القوى الاستكبارية، وهزت عروش المتجبرين، لأن الغضب الثوري للاسلام على

هذه المعاقل ومن يسكنها هو أكبر وأقوى وأكثر تأثيرا من القنابل الذرية.

ج . والعامل الآخر الذي يساعد المستكبرين على مسخ الشخصية الانسانية للمستضعفين، هو التأثير النفسي لموقعهم الاجتماعي في نفوس الطبقات المحرومة.

فالمستكبرون وبفضل القدرة والثروة، ومظاهر الأبهة والعظمة، والعقلية العشائرية التي يتمسكون بها، يقومون بدور فعال في شل عزائم المستضعفين، الى درجة أن الناس ينظرون بحيرة الى هؤلاء ويفقدون لذلك شخصيتهم.

أما السر في أن يصف القرآن الكريم طبقة المترفين والمستكبرين بـ «الملأ» فيحتمل أنه يكمن فيما أشاروا اليه حين عرّفوا «الملأ» بالطبقة التي تملأ العيون. يقول الراغب في المفردات:

«الملأ جماعة يجتمعون على رأي فيملأون العيون رواءً ومنظرا. والنفوس بهاءً وجلالاً...».

ولم يستخدم القرآن الكريم قط كلمة «الملأ» في الذين يتبعون الأنبياء، بل استخدمها في قوم مترفين ومستبدين ومغرورين، عارضوا الأنبياء وسعوا لفرض مايحملون من آراء على هؤلاء.

لذا فان التأثير النفسي لهذه الفئة على الناس، وتجريدها هوية هؤلاء، لهما أمران تؤمن بهما فلسفة علم الاجتماع. ولهذا يصرح الرسول الأكرم(ص) قائلا: **«الناس على دين ملوكهم»**.

ان الدكتاتوريات والسلطات المتجبرة من جهة، والتأثير النفسي للمستكبرين على المستضعفين من جهة أخرى، تجر الناس الى الانحراف، وتقف مانعا في طريق الله **«ويصدّون عن سبيل الله»**. كما ان طبقة المستضعفين ـــ واستنادا الى معارضة المستكبرين ـــ كانت على الدوام تخشى اظهار ايمانها بالأنبياء، وتحرس العقيدة بخوف وقلق.

هناك آية تشرح قصة موسى (ع) وفرعون والمستضعفين، حيث تقول:

«فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملإهم أن يفتنهم وان فرعون لعالٍ في الأرض وانه لمن المسرفين».

(يونس: ٨٣)

وهنا يبرز الشعور بضرورة مواجهة الاستكبار عبر قناة رسالات الأنبياء فالأنبياء الذين بعثوا لهداية الناس وارشادهم الى الله، اتجهوا قبل كل شيء الى المستكبرين ليزيحوا أمام الناس الستار عن شخصياتهم الخيالية والوهمية، ويحطموا هذا المانع، كي يسير الناس في طريق الله دون أن يواجهوا أي مانع، وكما يصرح القرآن الكريم فان تاريخ الأنبياء يعتبر دليلا صادقا وواضحا لا ثبات هذه الحقيقة. فعلى سبيل المثال نرى كيف ان ابراهيم(ع) تحدى نمرود، و موسى (ع) تحدى فرعون، وعيسى (ع) وقف في وجه سلطة الروم والمستبدين الاسرائيليين، فيما وقف محمد(ص) في وجه قيصر و كسرى وعبدة الأصنام وآكلي الربا والمتمردين من اليهود والأحزاب وغيرهم. وكذا الحال بالنسبة لسيرة الأئمة وسياساتهم، اذ لم يساوم أي امام طاغوت عصره، بل خاض كل منهم صراعا مريراً ضده.

فالامام علي(ع) تحدى معاوية، والحسين(ع) تحدى يزيد، فيما وقف الامام الصادق(ع) في وجه المنصور، أما الامام الكاظم(ع) فقد عارض هارون الرشيد وتحداه وهكذا سيكون الحال الى يوم ظهور امام مستضعفي العالم وتحطيمه لآخر قلاع الشرك ومعاقل الاستكبار وتسليمه سلطة الأرض للمستضعفين.

وهذه هي وظيفة كل مسلم وعالم وفقيه وقائد، يرغب في مواصلة طريق الأنبياء والأئمة وشهداء التاريخ، إذ يجب عليه الانتفاض لتحطيم معاقل الكفر والنفاق **«فقاتلوا أئمة الكفر»**.

* * *

القدرة والاستكبار

تحدثنا فيما مضى عن الكفر والنفاق ودورهما في النفوس المستكبرة والآن نشير الى دوافع الاستكبار الأخرى، وعلى رأسها وصول هؤلاء الى السلطة والحصول على القدرة.

والى هذا العامل يشير القرآن الكريم في بعض آياته بصراحة تامة. فلنتأمل على سبيل المثال الآيتين التاليتين:

«فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا

في ايام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون».

(فصلت: ١٥ــ١٦)

ان قوم عاد كانوا يقطنون أرضا معمورة في اليمن اسمها «الأحقاف» تقع في جنوب الجزيرة العربية. وكان هؤلاء القوم يعيشون في رفاهية من العيش، هذه الرفاهية في العيش بالاضافة الى بغضهم لقومهم وقبيلتهم قد دفعتهم الى الغرور والتكبر، الى درجة تصوّروا معها أنهم أقوى الأقوام وأكثرهم مقدرة، وكذبوا رسول الله «هودا» عليه السلام، واستكبروا على الله ورسوله، و على الناس.

غير ان العادة قد جرت بأن تقوم سنّة الله باذلال المستكبرين، اذلالهم في الدنيا والآخرة، وتحقيرهم أمام أنظار الناس. وعندما يسير نجمهم الى الأفول، ويعجزون عن القيام بأي شيء، تكون الرياح في هذه الحال حاملة للغضب الالهي، حيث تجرد هؤلاء من غرورهم، وتجعلهم عبرة للآخرين على مرّ التاريخ.

وهكذا الحال بالنسبة لمصير بقية المستكبرين على مر الزمن، فلكل واحد منهم مرحلة قصيرة سرعان ماتزول.

وعلى هذا الأساس فان عمر مستكبري ومجرمي العصر في الشرق والغرب يتعرض لريح صرصر، وان مفتاح فشل هؤلاء واضعافهم هو في أيدي الشعوب المستضعفة فيما لو تحركت في ظل الارادة الالهية. ذلك ان المستكبرين والمغرورين ــ كما تنص الآيات القرآنية بصراحة ــ لما كانوا لايعتمدون على الله، ويفتقرون الى تأييد جموع الناس، فان قدرتهم المزيفة القائمة على أساس السلاح والقوة تواجه خطر الاضمحلال في كل لحظة «وهم لاينصرون».

* * *

* السلطة السياسية والقدرة العسكرية والاستكبار

والآن نشير الى آيات تصف حال الفراعنة. وجدير بالذكر انه يجب عدم النظر الى الفراعنة كقبيلة أو عشيرة معينة، ذلك ان القرآن الكريم يتحدث عن فرعون وأتباعه كتيار طاغوتي واستكباري حاكم، تيار كان له طيلة مدة حكم المستكبرين مايشبهه من تيارات، كما ان التفرعن والتكبر والتجبر يلقي ــ اليوم ــ بظله المشؤوم على أجزاء واسعة من الكرة الأرضية.

«ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * الى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين * فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون * فكذبوهما فكانوا من المهلكين * ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون».

(المؤمنون: ٤٥ ــ ٤٩)

نستنتج من الآيات الآنفة:

أ ــ ان الفئة الحاكمة، فئة عاصية، تتكبر على الله ورسله، وان الغرور والانانية والتكبر التي تعتبر من صفات الفئة الحاكمة المتسلطة تشكل قاعدة يرتكز عليها الاستكبار.

ب ــ ان فرعون وحاشيته لايصدقون أن يبعث نبي من بين الطبقة المستضعفة لبني اسرائيل، ليقف في وجه النظام الحاكم ويتحداه. فهذه الفئة المستضعفة التي كانت لسنين عديدة تعاني من نير القبطيين، ويتعرض أطفالها للمجازر الجماعية، وتستخدم هي لبناء الأهرام ومقابر الفراعنة الشيطانية، هذه الفئة تريد اليوم أن تسيطر على زمام الأمور.

وليس هناك أصعب على طبقة المستكبرين والنظام الحاكم الذي يقيم أساس وجوده على العلو والاستكبار والظلم والغرور وتحقير الآخرين، من أن ينهض من بين تلك الطبقة المحرومة والمضطهدة والتي لاقيمة لها في نظرها! نعم؛ أن ينهض من بينها أفراد أعدوا أنفسهم لتحطيم السلطة الحاكمة وعدم الاهتمام بأقطاب الكفر والاستكبار!

ووجود هذه العقوبة النفسية الى جانب العقوبات الأخرى، يمثل أكبر عقوبة في نظر المستكبرين، وعلى حد قول القرآن الكريم **«عذاب الخزي»** فألم الذلة والمسكنة، ألم جلبه هؤلاء لأنفسهم بأيديهم. وان على المستكبرين ــ شاءوا أم أبوا ــ أن يذوقوا طعم هذه العقوبة والعقوبات الأخرى.

ومن هنا يمكن التعرف على أسباب غضب وانزعاج الامبريالية الأميركية وبقية مفترسي العالم بعد نجاح الثورة الاسلامية المباركة في ايران.

فالشيطان الأكبر وحلفاؤه الذين استكبروا في الأرض، واضطهدوا المستضعفين، وسلبوا الشعوب حتى حقها في الحياة وتقرير مصيرها بنفسها عبر تحقيرها وتكبيلها ونهب ثرواتها وخيراتها، ويرون في أفرادها وحوشا،او يسيطرون

على حكوماتها العميلة، رأوا فجأة وخلافا لتوقعاتهم صاعقة أدخلت الرعب الى قلوب أقطاب السلطة الامبريالية، بحيث سلبتهم الراحة التي كانوا يتمتعون بها لعشرات بل لمئات السنين، وتغيرت ايران الشاه والبيت الثاني لأميركا بشكل لم يبق معه أي أثر لأميركا أو لعملائها، او لعمليات النهب التي كانوا يمارسونها، وفشلت جميع مؤامرات الشيطان الأكبر التي كانت تحاك بمشاركة جميع القوى الخارجية والاذناب الداخليين.

ان الامبريالية الأميركية والقوى الشرقية والغربية قد أُذِلت لدرجة ان أطفال الثورة يرددون في الأزقة والشوارع شعار «الموت لأميركا» وحلفائها فيما يرى المتقون في ذلك الشعار نوعا من الوِرد والعبادة، أما الثوريون فيرونه أكبر وأقوى شعار.

نعم، هذه هي الأمور التي تخلق أزمة نفسية شديدة لحكام واشنطن والكرملن وبقية الشياطين بحيث تدفعهم للتساؤل قائلين: ترى هل نحن الذين يحتقرنا المستضعفون، هؤلاء الذين ننظر اليهم باحتقار؟ وهل ان ايران هذه هي نفس ايران السابقة بحيث تبدلت اليوم الى قاعدة صلبة للثورة الاسلامية في العالم وخلقت مشكلة كبرى للقوى العظمى؟

وهل... وهل؟

ان هؤلاء المستكبرين يجب عليهم بعد مرور كل هذه الأعوام على نجاح الثورة الاسلامية أن يعلموا بأن سيادتهم واستكبارهم وسلطتهم وتجبرهم في هذه البقعة من الأرض قد أُنهيت، وان قواعدهم الأخرى في جميع أرجاء المعمورة ستزال لامحالة **«فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين»**.

والآن لنعد الى الآيات مورد البحث.

ج ــ في الوقت الذي يكون فيه المستكبرون أغبى من أن يعودوا الى الصراط المستقيم، وان غرورهم واحتقارهم للآخرين لايعطي لهم مثل هذه الفرصة، فان الله سبحانه وتعالى وانطلاقا من رحمته يبعث برسله ليوضحوا للجميع ــوحتى لهؤلاءــ كل الأمور لئلا يقول هؤلاء: ألم يكن من الأفضل أن يحذرنا الله ومن ثم يؤاخذنا على مافعلناه؟

ان الشطر الأخير من الآيات يشير الى هذا المعنى: **«ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون»**.

عصابة الثالوث في خدمة الاستكبار

«وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع الى إله موسى واني لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لايرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لاينصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين»

(القصص: ٣٨ــ٤٢)

نستنتج من الآيات الآنفة مايلي:

أــ ان المستكبرين بعلوهم وطغيانهم واستبدادهم يصلون الى مرحلة من القوة بحيث يتخطون فيها حدود القوى البشرية، ويرون أنفسهم بمستوى الله! ذلك ان مفهوم الربوبية عندهم يتمثل بالقوة والثروة والجيوش والعصابات العميلة والمتملقة لهم. ثم ان ادعاء الربوبية أمر شائع على مر تاريخ المستكبرين. فأحيانا تطلق هذه الادعاءات من قبل أمثال نمرود و فرعون وقيصر و كسرى، وأحيانا أخرى تطلق بشكل مباشر من قبل القوى الاستكبارية في الشرق والغرب، كما هو الحال اليوم في العالم.

لقد أمر الأنبياء الالهيون بتحطيم القوى الوهمية والمتألهة وتحرير المستضعفين من سلطتها. وما سيرة سيدنا ابراهيم و موسى و عيسى ــعليهم السّلامــ والرسول الأكرم(ص) وبقية الرسل، إلاّ دليل بارز على هذا المدّعى.

وعلى هذا النهج سار الأئمة، ويجب أن يستمر هذا الطريق الى يوم القيامة من قبل العلماء والمؤمنين الذين يحملون على عواتقهم رسالة الأنبياء والأئمة لأنّ مثل هؤلاء العلماء هم ــدون شكــ ورثة حقيقيون للأنبياء.

الاستكبار في ثياب التقدس

ومن هنا يجب ادانة وعاظ السلاطين (من المسلمين والمسيحيين) الذين يسعون لتقوية أركان الأنظمة والحكومات الطاغوتية، فتراهم يخفون تحت عمائمهم وعباءاتهم تاج فرعون، وشارة الصهيونية، والعلم الأميركي، ووثائق عمالتهم للملوك والأمراء الذين هم ألعوبة بأيدي مستكبري الشرق والغرب، ويطعنون

الاسلام والمسلمين من الخلف، بدل قيامهم بدور المسيح وموسى عليهما السّلام، والرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

ويقف هؤلاء الذين يشكلون زاوية حساسة من المثلث الاستكباري المشؤوم، موقف المتفرج من دين الله الذي صار ألعوبة بأيدي المستكبرين وعملائهم، ويسمعون أنين المظلومين ويشاهدون مصائب المسلمين والمحرومين في العالم دون أن يحركوا ساكنا، أو يبدوا أدنى اعتراض، والأسوأ من هذا وذاك ، أنهم يمدون يد الصداقة الى المجرمين والمستكبرين!

ولهذه الجبهة الاستكبارية الجديدة التي تخرج من أكمام علماء الدين المأجورين، أبعاد واسعة، اذ تضم قساوسة من الفاتيكان، ووعاظاً من السعوديين والمغاربة والأردنيين والسودانيين وغيرهم ممن يجتمعون في المغرب لاعداد المؤامرات حينا، وفي بغداد بحماية من أميركا والاتحاد السوفياتي والكيان الصهيوني حينا آخر، وينكسون رؤوسهم للطغاة المجرمين أمثال صدام، ويصدرون الفتاوى والأحكام لتسويغ جرائم اكبر مجرم عرفه التاريخ، وتنزيهه من الجرائم التي ارتكبها، والفساد الذي قام به!

نعم ان هؤلاء بممارساتهم بيضوا وجوه أمثال بلعم وشريح القاضي، وسوّدوا ــ الى الأبد ــ وجوههم العميلة، وصاروا وصمة عار في الساحة المقدسة للعلم، بحيث ان آثارها لا ولن تزول الى الأبد حتى وان غسلت بماء زمزم والكوثر.

وصدق الشاعر الاسلامي الكبير «اقبال اللاهوري» حين قال بحق هؤلاء ما معناه:

«عبد الانسان مثيله جهلا
وأهدى لؤلؤته الى قباد وجم
فهل هو أحقر من الكلاب؟
أما أنا فلم أركلبا خضع لكلب آخر»[١]

و على حد قول القرآن الكريم «**فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث**». (الأعراف: ١٧٦)

فقصة هؤلاء تشبه قصة ذلك الكلب الذي ينبح، وهذه هي صفته. ينبح لصالح المستكبرين والملحدين والمتجبرين والمستبدين، ولكن بأي أمل؟ فقط بأمل

الحصول على قطعة من العظم أو كسرة من رغيف، لأنه ساعد أقطاب الكفر والاستكبار في المجازر و نشر الفساد ومحاربة الله و عباده المظلومين!!

فعجبا للانسان كم يذل نفسه! والى أي مرحلة من السقوط يصل؟ وبنفس الدرجة التي يملك فيها الانسان استعدادا كبيرا في التقرب من الله، والتحليق في ارتفاعات عالية لا تصلها الملائكة (أعلى العليين) فانه في نفس الوقت يملك قابلية لامثيل لها على المضي نحو السقوط والاضمحلال والفساد والضلالة والخسران، توصله الى الدرك الأسفل.

ان التاريخ يبيّن لنا انه في أتعس الظروف المتأزمة من تاريخ الاسلام، وفي الوقت الذي يشن فيه المستكبرون هجوما على المسلمين والمستضعفين، ويقتلون ويذبحون المظلومين والمضطهدين، وفي الوقت الذي تهاجم فيه القوى الامبريالية الأميركية والصهيونية والفرنسية والروسية، الجمهورية الاسلامية في ايران بمساعدة عملائها في السعودية والأردن والسودان والمغرب وبقية العملاء الآخرين أمثال صدام، وتقتل آلاف الناس الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ بالقنابل والصواريخ، وتهدم المناطق السكنية على رؤوس من يعيش فيها من الأبرياء، نعم، في مثل هذه الظروف يعقد في بغداد (مؤتمر اسلامي!) بمشاركة وعاظ السلاطين، ويفتتح بكلمة لصدام، فيما يسعى هؤلاء المرتزقة عبر كلماتهم وخطاباتهم لتنزيه صدام!!

اننا لانعتقد بأن التاريخ البشري من بدايته وليومنا هذا قد شهد مثل هذا الانحطاط والحقارة في تاريخ علماء الدين. وها نحن ندعو الضمير العالمي ليحكم بنفسه على هذا الأمر، كما ندعو الشعوب لترى أي الأشخاص تتبع، وخلف من تصلي؟!

ترى لولم يكن هناك علماء حقيقيون يوصلون اليوم رسالة الأنبياء والأئمة الى مسامع العالم، ويحملون علامة من ابراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ والرسول الأكرم(ص) في مواجهتهم للاستكبار، فكيف كان حال المسلمين؟ وهل كان للاسلام اليوم من أثر؟

لكن الله سبحانه وتعالى يتم حجته على البشر في كل زمان، وسيكون هذا الأمر قائما الى يوم القيامة.

وفي هذا العصر المليء بالمظالم والضلالة، فان الثورة الاسلامية في ايران تعتبر تبلوراً للدين الاسلامي الحنيف الذي بشر به سيدنا محمد(ص) كما ان القيادة الحكيمة لامام المستضعفين هي بدورها تجلٍّ آخر للرسالة والمسؤولية الالهية.

نعم، في ظل هذه الثورة والقيادة يعلمنا الله أي المواصفات يجب أن تتوفر في عالم الدين، ويؤكد للناس المستضعفين بأن الفضيلة والحقيقة لم تموتا بعد في البشر، وهما قائمتان لليوم «قل فللّه الحجة البالغة».

ولنعد الآن الى الآيات مورد البحث.

«الملأ»، أشراف ومستكبرون

قلنا ان المستكبرين يدّعون حتى الربوبية. والآن ننتقل الى ملاحظة أخرى في الآية تتطرق الى الفئة التي تدعم الظالمين.

«قال فرعون يا أيها الملأ...... فأوقد لى ياهامان.....».

«الملأ» هم طبقة ارستقراطية، مترفة ورأسمالية.

والقرآن الكريم لم يشر الى الملأ والطبقة المذكورة كجهة مؤيدة لجبهة الحق. فهؤلاء وضعوا ــ دائما ــ في زمرة الباطل، لأنهم يؤيدون المستكبرين وعملاء الشياطين في جميع الأحوال. ولتوضيح أكثر يرجى مراجعة الآيات القرآنية بهذا الخصوص.

ويذكر القرآن الكريم صفات للملأ، منها:

انهم رأسماليون، ويرغبون في عيش يخلومن أي جهد وتعب، ويهتمون بالمظاهر كثيراً **«ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا»**. (يونس: ٨٨)

* انهم أصدقاء وعملاء لأقطاب الشرك والكفر **«قال فرعون يا أيها الملأ»**. (القصص: ٤٥)

* انهم مستكبرون **«الى فرعون وملائه فاستكبروا»**. (المؤمنون: ٤٥)

* انهم كفرة ومشركون **«قال الملأ الذين كفروا»**. (الاعراف: ٩)

* يقتلون النبيين ومن يسير في طريق الحق **«ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك »**. (القصص: ٢٠)

وهل ان جذور الاستكبار والخيانة وأصولها هي غيـر هذه التي ذكرناها؟

اذن، فـ «الملأ» طبقة تُعنى بالمظاهر، وتنشد الراحة الدائمة، وهي اقطاعية ورأسمالـية ومتـكـبرة ومغـرورة وكافرة ومشـركـة ومنافـقة وملطخـة أيديها بـدماء الأنبـياء والـرجال الالهـيين. وتشـاهد ــ دائمـاً ــ بالـقرب من الـقوى الطـاغوتـية، فتتملق لها وتكون دعائم لمعاقلها.

وهي من جهة ثـانية بعيـدة عن الناس، لا تعـترف بالناس ولا بحـقوقهم، وجودها ناشئ من الناس، لكنها تنظر الى الناس المحرومين باحتقار.

ويتميز الـنظام الطاغوتي الاسـتكباري بأن ينتـخب وزراءه وعملاءه من بين هذه الطبـقة، في الـوقت الذي تنتـخب فيه الأنظمـة الجماهيريـة المسؤولين من بين المستضعفين.

ومـا دامت هناك أنظمة حـاكمة تنتخب أفـرادها من «الملأ»، فلا يمكن ــ قط ــ التفاؤل بتحسن أوضاع المجتمع وتحرره من سلطة تلك الأنظمة.

ان هـامان (وزير فرعون) كان يـنـتمي الى هذه الطبقـة. ولقد طلب منه فرعون أن يبني له قصرا كي يكتشف مكان الله!!

سبحان الله، كيف ان الغرور والاستكبار يوصلان الانسان الى مثل هذه المرحلة؟ ويجعلانه يتلاعب بالمقدسات.

في تـلـك الحالة لايرى الانسان لـلـمبدأ والمعاد والرسـالـة والنبوة والخلق والخالق والحق والعدل ولجميع الأمور الأخرى أي مفهوم!

اذن، أي ظلم أكبر من هذا الظـلم الـذي يرتكبه الانسـان بحقـه هو وحق الناس والتاريخ البشري؟

المستكبرون، قادة الى النار!

يقول القرآن الـكريم في احدى آياته واصـفا المستكبـرين: «**وجعلناهم أئمة يدعون الى النار**».

(القصص: ٤١).

انّ أكبر كارثة تحصل للـمستضعفين على أيدي المستكبرين تتمثل بسوقهم الى النار. فالأقويـاء بجرهم الضعفاء الى الضلالة والعبودية المشركة واشاعة الفساد والـفحشاء، وابعاد هؤلاء عـن المـبـدأ والمعاد ونهج الأنبـيـاء، وجـرهم بالتالي الى

الحضيض، يعتبرون قادة الى النار، وهم من جهة أخرى يبدلون حياة الناس الى جهنم بحيث ان مشاعلها تضرم النار في كيان المستضعفين.

وان نظرة اجمالية الى الحروب والمجازر التي سطّرت في صفحات التاريخ وعلى وجه الأرض تكفي لمشاهدة جهنم هذه الأرض التي أعدها هؤلاء الاشرار لايقاع المحرومين فيها.

ومن هنا فان تحدي المستكبرين والقضاء عليهم بأي ثمن كان لهما أمران لابدّ من حصولهما، ذلك ان النار التي تحرق دنيا وآخرة مجتمعٍ مّا ليست أمرا بسيطا بحيث يمكن اغفاله، اذ يلزم اطفاء هذه النار.

فالانسان اذن، على مفترق طريقين: إمّا أن يستسلم للطغاة الظلمة الذين يضطهدون ملايين الأشخاص من أبناء نوعه المستضعفين ويأخذون بأيديهم الى جهنم أذلّة خاسرين، وإمّا أن يرضى بالشهادة لينهي عمر المستكبرين الى الأبد، ويحرر أجياله القادمة من المصير الذي ابتلي به هو، لأنّ الله تعالى قد خلق جهنم للمستكبرين لا للمستضعفين **«وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين»**.

(القصص: ٤٢)

والطريق الثاني هذا، طريق سلكه الأنبياء والقادة الالهيون وبشروا بنصر الله للمستضعفين، ليسيروا الى الأمام دون أدنى خوف وقلق، وإلاّ لكانوا عونا لمنافسيهم: **«ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يُبين * فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين»**

(الزخرف: ٥١ــ٥٤)

هذه الآيات تتضمن ملاحظات أخرى حول الاستكبار، أشرنا فيما سبق الى بعضها، ونشير هنا الى بعضها الآخر.

واستنادا الى هذه الآيات، وكما أثبتت التجارب، فان النظم الاستكبارية تستخدم أساليب وتكتيكات متعددة لاستضعاف الناس وأسرهم.. ابتداءً من الثروة والقوة والسلطة السياسية والعسكرية وانتهاءً بالعوامل

الداخلية والحروب النفسية وسلاح الاعلام، مضافا الى استغلال العناوين وحتى المصطلحات الدينية!

الاستكبار والثروة

ان المستكبرين يؤكدون على قدراتهم الاقتصادية والسياسية لاضفاء الصبغة الشرعية على وجودهم ونظامهم. وان منطق الأنظمة السلطوية القائمة اليوم في العالم هو كما يلي:

لما كانت مساحة بلادنا أكبر ومصانعنا أعظم، فاننا نتميز بانتاج ورأسمال أكثر، ابتداءً بالذهب وحقول النفط، وانتهاءً بالدولار والأسلحة وبضائعنا التصديرية وغيرها. ومن هنا كان لنا الحق في الحكم!

وعلى أساس هذا المنطق يجب ان تحكم أميركا والاتحاد السوفياتي والصين وبريطانيا العالم كله! وان تتمتع بحق النقض في المنظمات الدولية التي شكلت ــ على الظاهر ــ للدفاع عن حقوق المحرومين والشعوب والدول الضعيفة، لكنها ــ في الحقيقة ــ تحرس مصالح القوى الشيطانية.

نعم؛ تتمتع في تلك المنظمات بحق النقض والنهب، بل والقتل والتدخل في شؤون الدول والشعوب!

والأنكى من ذلك ان القدرة السياسية والاقتصادية التي اكتسبها المستكبرون جاءت بفضل وجود هذه الشعوب المحرومة.

ان النفط والذهب والثروات المنهوبة للدول المستعمرة والمستضعفة هي هدايا تقدمها الأنظمة المفروضة والعميلة في هذه الدول (التي تحكم الناس باسم الاسلام) الى أسيادها. حتى وصل الأمر ببعض تلك الأنظمة أن خفضت سعر النفط كهدية لأميركا بمناسبة عيد الميلاد!

نعم؛ ان حديثنا يدور عن سلطة الثروة والاقتصاد ودورهما في تقوية وتثبيت القواعد الاستكبارية.

ومثلما لاحظنا، وكما تؤكد الآيات القرآنية، فاننا يجب أن لانعتبر القدرة الاقتصادية أقل أهميةمن القدرتين السياسية والعسكرية. فالقرآن الكريم يرى في قارون الذي كان مظهرا للمال والثروة جزءاً من المثلث المشؤوم للطغيان

والاستكبار: «**وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين**».

(العنكبوت: ٣٩)

وهذه التركيبة التي تشمل سلطة فرعون ووزارة هامان ورأس مال قارون، لم تكن من باب الصدفة، بل هي صفة طبيعية للاستكبار الذي ينمو في أرض الغرور والطغيان، ويروي عطشه بالماء المسموم (المال والثروة وخزائن الذهب)، ويعطي محصوله ويجنى بعون من هامان، محصول يلتذ ويهنأ به هو، ويكون للمستضعفين كالسم الزعاف.

ولو نظرنا اليوم الى الجهات الأربع للعالم، وطالعنا قصة الاستكبار والاستضعاف، لرأينا بوضوح تضامن هذه الأقطاب الثلاثة: (الفرعونية والقارونية والهامانية)، اذ نشاهد فراعنة العصر، والقوى العظمى التي تقف على رأس هذا الهرم الاجرامي من جهة، والعملاء المأجورين في الدول الصغيرة والكبيرة بثياب السلاطين والأمراء والرؤساء والحكام من جهة أخرى، والرأسماليين الكبار واللوردات الأميركيين والصهاينة والأوروبيين الذين يقررون مصير العالم الاستكباري من جهة ثالثة.

والملاحظة الجديرة بالتأمل هي ان القرآن الكريم بقوله: «**وما كانوا سابقين**» يصرّح بأنّ هذا الاستكبار في الأرض، واتحاد أقطاب المستكبرين ليس أمرا اخترعه فرعون وقارون وهامان، بل كان موجودا قبل هؤلاء، بالضبط مثلما هم ليسوا آخر الأشخاص، حيث ان هذا الأمر سيبقى موجودا حتى بعد فناء هؤلاء، ولن ينتهي إلاّ اذا ورث المستضعفون الأرض.

الاستكبار وسلاح الدعاية

والملاحظة الأخرى الجديرة بالتقدير والواردة في الآيات السابقة من سورة الزخرف حول قصة موسى(ع) وفرعون، هي لجوء المستكبرين الى سلاح الدعاية.

ففرعون يجري مقارنة بين نفسه وبين موسى(ع)، ويقول: من هو الأفضل؛ أنا الذي أملك القدرة والسلطة والثروة واللغة والبيان، أم موسى الذي ينتمي الى طبقة محرومة لاقيمة لها، بل وليس له بيان صحيح؟!

ثم يستعين بكلمة «الملئكة» ويخلط بذكاء بين الذهب والملائكة!

ويقول: لماذا لم يأت بأسورة من ذهب، أو لماذا لم ترافقه الملائكة؟!

والسؤال هو: ماهي العلاقة بين أسورة الذهب ومجيء الملائكة؟ هذا مايلزم أن نسأل المستكبرين عنه، وان كانت هذه المسألة قابلة للتبرير في قاموس هؤلاء!

ان المستكبرين ــ وعبر الاستناد الى الذهب ومظاهر الثروة والاستثمار ــ يريدون أن يلصقوا بأنفسهم اسم «الملائكة» الذين يمثلون مظهراً للقدسية، وكأنهم يريدون أن يقولوا، ان من يملك ذهبا ومالا وثروة، تعينه الامدادات الغيبية!! وبتعبير آخر: ان الحق هو الى جانب من يملك تلك الأشياء، أما من يفتقر اليها فيظل محروما من الامدادات الالهية!!

حقا ان سلاح الدعاية الذي يستخدمه المستكبرون خطير ومؤثر جدا، كما انه وفي عرف مثل هذه الأجهزة الدعائية يتحد اللسان والذهب والملائكة معا في ظل القدرة والسلطة، وتلتقي جميع التكتيكات والأساليب الدعائية لمسخ الحقيقة واضفاء صبغة الحق على الباطل. وهذا هو أسلوب آخر لم يستخدمه فرعون فحسب، بل كان وما يزال سلاحا يلجأ اليه مستكبرو التاريخ.

والابواق الدعائية في العالم اليوم تتغذى بأموال الشعوب الفقيرة وما تملكه من ذهب وبترول وثروات أخرى، وتقوم بعشرات اللغات ــ عبر الاذاعات ووسائل الدعاية ــ بتزييف الحقائق وخداع الرأي العام العالمي.

انهم (اي المستكبرون) ولفرض آرائهم وأكاذيبهم يلجأون حتى الى استخدام القوة! وهم يسيطرون على كل شيء، ابتداءً من محطات التلفزيون والاذاعات وأجهزة نقل الأخبار والأفلام والنشرات والمسرحيات وغيرها، وانتهاءً باستوديوهات الدعاية والأخبار وصالات السينما والحدائق والأوساط الحقوقية الدولية!

فأميركا والكيان الصهيوني والاتحاد السوفياتي وفرنسا وبريطانيا وألمانيا وبقية كبار شياطين الأرض، وكذلك العراق ومصر والاردن والسودان والمغرب وسلطنة عمان والسعودية والكويت وأمثالها من صغار الشياطين الآخرين، وحتى وكالات التجسس مثل وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية والبنتاغون والموساد ووكالة التجسس السوفياتية، والأخصائيون في تحريف الأفكار وبث الدعايات،

والصحف والنشرات السرية والمناهج الدراسية والثقافة المحلية في داخل و خارج الدول المحرومة، نعم كل تلك الجهات تلجأ ــ لتحقيق أغراضها المشؤومة ــ الى مختلف الأساليب، ابتداءً بالمال والرشوة والاغراء، وانتهاءً بالتهديد والارهاب ونشر الأكاذيب واشاعة الفساد وأية وسيلة أخرى، كذلك استغلال اسم الدين والكعبة والكنائس والصوامع والقرآن والتوراة والانجيل، بل وأسماء الأنبياء، والاستعانة بوعاظ السلاطين الذين يخفون سيرة فرعون في جبة موسى(ع)، ويسعون عبر استحالة دعائية لاظهار ورثة نمرود ويزيد الزمان كمظاهر للصلح و الوئام!! (مثل صدام الكافر في مايسمى بالمؤتمر الاسلامي ببغداد) ويخلقون المسوغات لتنفيذ المجازر والجرائم والاعتداءات.

انهم يستخدمون هذا السلاح ومئات الأسلحة الدعائية والعملية غير المشروعة، ويجعلونها متناسبة مع الأوضاع والمجالات الاجتماعية والنفسية والاقليمية والجغرافية للشعوب، كي يغسلوا الأدمغة، ويقضوا على القيم، ويضعفوا العزائم، ويمسخوا الأفكار.

كما يسعون الى الهاء الناس عن التفكير بمصائرهم، واظهار الظالم مظلوما والمظلوم ظالما، والسعي كذلك عبر سفسطاتهم الى جعل الليل نهاراً والنهار ليلاً!

هذه الأساليب الشيطانية ومئات أخرى من الأساليب الخادعة والمكائد الابليسية ووساوس الخنّاسين، تلجأ اليها القوى العظمى وعملاؤها بغية استخدامها ضد المظلومين والمستضعفين.

ومما لاشك فيه ان الأساليب آنفة الذكر والتي يعجز القلم عن وصفها وبيانها، هي ــ في الواقع ــ أسلحة دعائية يستخدمها الاستكبار العالمي بقطبيه الشرقي والغربي ضد الثورة الاسلامية في ايران والشعب الايراني المسلم والمظلوم.

ونظرة اجمالية الى الأجواء الدعائية التي توفرها الأجهزة الخبرية ووكالات التجسس وحتى مايسمى بالمنظمات الحقوقية الدولية، توضح صدق ماقلناه آنفا.

وهنا يجب ان نتعرف على السبب الذي يجعل القرآن الكريم يتحدث عن قصص فرعون وموسى(ع) ومستضعفي ذلك العصر في مواطن عديدة ويبين حيل الفراعنة ومكائدهم. وكما قلنا وأشرنا مسبقا فان فرعون يعتبر قدوة للاستكبار، وما ورد في القرآن الكريم بشأنه لايقتصر على شخصه هو بل يعني تياراً تاريخياً مستمراً.

ظهور بارقة أمل من خلف الأسوار العالية

من الضرورة بمكان أن نشير هنا الى ان هذه التعبئة الدعائية والتسليحية ضد الجمهورية الاسلامية في ايران، قد خطّط لها مسبقا لضرب الاسلام والأمة الاسلامية ومستضعفي الأرض، ولم تأت بطريق الصدفة. ذلك ان الثورة التي تسعى الى انهاء حياة المستكبرين واستئصال شأفتهم من الأرض، عليها أن تكون مستعدة لمواجهة المؤامرات، كما كان الحال خلال تاريخ رسالات الأنبياء. فنمرود وبهدف القضاء على ابراهيم(ع) أوجد بحراً من النار، فيما لجأ فرعون الى جميع الأساليب لخنق صوت موسى(ع). وفي زمن الرسول الأكرم(ص) اتحدت الأحزاب ومختلف التيارات والعناصر المستكبرة في الداخل والخارج، اتحدت فيما بينها للقضاء على الاسلام والرسول الأكرم(ص).

وخلاصة القول: ان هذه المياه المالحة والعذبة ستجري على نسل الانسان الى يوم القيامة، ولكن يجب ألاّ ننسى الحقيقة التالية. وهي ان النصر سيكون حليف المستضعفين، وان الفشل يقف بالمرصاد للمستكبرين.

«ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لامولى لهم».

(محمد: ١١)

«وانّ الله مخزي الكافرين».

(التوبة: ٢)

انّ من عجائب التاريخ هو ان الثورة الاسلامية في ايران ــ رغم كافة مؤامرات الاستكبار التي أشرنا اليها ــ استطاعت أن تطفئ نار نمرود العصر، وتفشل مكائد العصر الفرعونية والسامرية، وتتخطى أوضاعا قاسية وشاقة، وتلفت الى نفسها الرأي العام العالمي وخاصة المستضعفين، رغم وجود هذه الأجواء الدعائية المسمومة التي أوجدها المستكبرون.

وهذه رحمة وألطاف إلهية وثمرة الدماء الزكية الطاهرة التي بذلت في سبيل الله، وحصيلة القيادة الحكيمة لامام الأمة الاسلامية الامام الخميني الذي أنار بحنكته وفطنته الطريق أمام الأمة الاسلامية المظلومة.

نصل مما تقدم الى أنه يجب علينا ــ لغرض احباط مؤامرات الأعداء الدعائية ــ أن نستخدم كل ما بحوزتنا من امكانات.

ورغم ان أجهزة الاعلام العالمية هي في قبضة الاستكبار، إلاّ انه يمكن ــ والحال هذه ــ استمداد العون من الضمير العالمي الحر.

ان مستضعفي العالم يعرفون ــ اليوم ــ حقيقة دعايات أعداء البشرية وادعاءاتهم الفارغة، كما ان مايطلقه الاستكبار من تصريحات وأقوال لن تؤثر في هؤلاء شيئا، ذلك ان بارقة الأمل التي أنارت القلوب الباحثة عن الحق تستطيع أن تكون خيرعون في كشف الحقائق ومعرفة الواقعيات وتشخيص الأمور من بعضها.

هوى النفس، دافع آخر للاستكبار

استمراراً لبحثنا الخاص ببيان عوامل الاستكبار ودوافعه، نصل الى دافع آخر، يمكن اعتباره أهم الدوافع، ألا وهو «**هوى النفس**».

لنتأمل قبل كل شيء الآيات القرآنية التالية:

«ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون».

(البقرة: ٨٧)

لنلاحظ أن الاستكبار على الله ورسوله وجميع البشر، وأيضا قتل رسل الله وتكذيبهم وانكار رسالاتهم، كل هذه الأمور تنشأ في الحقيقة من هوى النفس.

فعبادة هوى النفس، والبحث عن اللذة، وطلب الراحة، هي أمور لامكان لها إلاّ في قلوب المستكبرين، وان هؤلاء ــ عبر اعتمادهم على القدرة والثروة اللّتين هما عصارة روح المستضعفين ــ يتحولون الى طغاة ومستبدين.

«ان الانسان ليطغى * أن رآه استغنى».

(العلق: ٦ ــ ٧)

«... ربنا انك ءاتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا آطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم حتى يروا العذاب الأليم»

(يونس: ٨٨)

ويصف القرآن الكريم المتمردين وطالبي اللذة بـ «المترفين» مؤكدا انهم يشكلون النواة الأساسية لهذا التيار، كما يسميهم بـ «المسرفين» و «المبذرين»،

ويقول: انهم اخوان الشياطين، حيث بتعمقهم في الماديات والأكل والشرب والنوم واللذة والشهوة وضياعهم في وادي الغرور، **«نسوا الله فأنساهم أنفسهم»** وتمردوا على مقدسات العالم، وأعطوا الأولوية لقتل الأنبياء وتجاهل أحكام الله وآياته حفظا لوجودهم.

أما النهج الذي يسير عليه هؤلاء فهو غير نهج الأنبياء(ع)، وانّ هناك صراعاً تاريخياً بين الرسل والمستكبرين، ينتهي دون شك لصالح أحدهما. لكن ومما لاشك فيه ان النصر في هذا الصراع يكون حليف الأنبياء وعباد الله الصالحين فهم منتصرون سواء تغلبوا على أعدائهم، أم تغلب عليهم الأعداء في الظاهر.

«ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * انهم لهم المنصورون * وان جندنا لهم الغالبون».

(الصافات: ١٧١ــ١٧٣)

انّ مايتصوره المستكبرون من فشل الرسل والصالحين وفنائهم، انما هما الشهادة والحياة السرمدية بعينهما واثبات شرعية الرسالة وتداوم خطها حتى بعد استشهادهم وعلى مرّ القرون العديدة لحياة الانسان. وما يراه هؤلاء نصرا لهم ليس إلاّ حياة قذرة يعقبها عذاب أليم.

وبهذا الخصوص يقول القرآن الكريم:

«ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسُقون».

(الأحقاف: ٢٠)

نلاحظ في هذه الآية ان المترفين هم من فئة المستكبرين الذين سيحرمون في الآخرة من نعم الجنة، ويذوقون الهوان والعذاب والذلة التي هي نتيجة طبيعية لاستكبارهم وفسادهم وفجورهم.

وعلى أي حال؛ فان الترف هو دافع آخر للاستكبار، وان المصير الذي آلت وتؤول اليه الأنظمة الاستكبارية لهو دليل عيني على هذا المدَّعى، لأن الأنظمة البرجوازية التي تفكر في اللهو والترف تسعى دائما الى الابقاء على

الطبقات الغنية (التي تسيطر على آلة الانتاج) في حال الترف والاسراف والتبذير. واليوم فان الدولة الغنية والرأسمالية والبرجوازية ــ عبر امكاناتها المادية ومشاريعها الرامية الى تحقيق اللذة ــ قد وفرت أجواء فاسدة وأوجدت مستنقعا في طريق الانسانية «وبما كنتم تفسقون».

ان ظروف مثل هذه السياسة وأجواءها في حياة البشر، تعمل على مسخ الانسانية وانحطاطها من جهة، ولغرض تأمين تكاليف سياسة الاسراف هذه وسلب حقوق الآخرين وقوت المحرومين، لا تتقاعس عن أي نوع من النهب والسرقة والربا والرشوة والاحتكار والتحايل والتجمل من جهة أخرى.

اننا نلاحظ أنّ العالم قد قسّم ــ اليوم ــ الى قطبين: أحدهما مستكبر، والآخر مستضعف، والى دول غنية وأخرى ضعيفة. أما القطب الأول فيتمثل بالدول المستغلة وعلى رأسها أميركا والدول الغربية، بل والدول الشيوعية الغنية التي تستند الى الفلسفة المادية! فيما يتمثل القطب الثاني بالدول الأفريقية والآسيوية، وبصورة عامة بدول العالم الثالث.

ففي الوقت الذي توفر فيه الدول الغنية حمامات خاصة وأغذية صحية للكلاب، نرى ان الأطفال الأبرياء في الدول الفقيرة وبسبب مجاعتهم وافتقارهم الى الصحة قد تحولوا الى هياكل عظمية تسير الى الموت سيرا جماعيا.

ان وجود مليــاري جائع في العالم اليوم، لهو رقم محير. هذا في وقت تصدر فيه جميع ثروات العالم الطبيعية من الشعوب الجائعة التي تسير على خزائن الذهب والبترول ببطون جائعة، وتموت موتا بطيئاً.[١]

هذه هي الآثار السيّئة لدول الاستكبار والاستغلال والرأسمالية والبرجوازية الحاكمة في العالم، حتى ان تلك الدول لم تسلم هي الأخرى من هذه المشكلة، اذ يقف الرأسماليون والاقطاعيون والأغنياء في جانب، والفقراء والمحرومون في جانب آخر.

وهنا بالضبط نعي عمق التصور القرآني لهذه المسألة، ونتعرف أكثر على كارثة الترف والاسراف والسير وراء المظاهر والحياة الارستقراطية.

وهنا أيضا نلمس ونحس مسؤولية المصلحين من الرجال وجموع المستضعفين الذين عليهم أن ينتفضوا ويخنقوا حناجر المستكبرين والناهبين

ويستردوا حقهم المسلوب من هؤلاء.

يقول أبوذر الغفاري في هذا الخصوص مامعناه: **«عجبا لشخص لايملك في داره طعاما، ولا يخرج حاملا سيفه وسلاحه ليستعيد حقه من الآخرين!!».**

أما الامام علي(ع) فيقول: **«وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقارّوا على كظة ظالم ولاسغب مظلوم».**

(نهج البلاغة: خ ٣)

* * *

نظرة الى بقية آثار الاستكبار

والآن نشير الى الآثار الأخرى للمستكبرين.

عندما كنا في المباحث السابقة نتحدث عن الدوافع، كنا نقف عند بعض الآثار التي يجب عدم التغافل عنها، غير ان آثار الاستكبار بأبعادها النفسية والروحية وما تخلقه من فشل في الدنيا والآخرة تستطيع أن تشكل بحثا مستقلا بذاته.

عمى القلب والاستكبار

تعتبر بعض الآيات القرآنية عمى القلب والانحراف الروحي من آثار الاستكبار. فالآية:

«الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عندالله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار».

(غافر: ٣٥)

تتضمن عدة ملاحظات، هي:

١. ان المستكبرين أشخاص مجادلون، يفتقرون في جدالهم الى المنطق، ولا منطق لهم الا القوة!

٢. ان المستكبرين مبغوضون بشدة من قبل الله سبحانه وتعالى ومن قبل المؤمنين.

٣. المستكبرون، أناس ممسوخون، وعميت قلوبهم، وأغلقت دونهم أبواب الفهم والادراك.

٤. المستكبرون أشخاص مستبدون، ومن أولى صفاتهم انهم يسعون

لفرض ما يريدونه بالقوة.

أما الترتيب الطبيعي للمسألة فهو كالآتي:

عندما يبتلى الانسان بالغرور والاستبداد والتكبر، لايرى قيمة لأي شيء عدا نفسه وأفكاره! فالانسان المغرور يعبد آراءه وأفكاره كما يعبد الصنم، وينميها في مزرعة الطغيان والتجبر، وينظر الى جميع مقدسات الخلق من هذا المنظار. ولهذا فانه لايفهم آيات الله ولا يدرك أهدافها ومعانيها لأنها صادرة عن الله سبحانه وتعالى وليس للمستكبرين شأن بالله، فلذا تراهم يجادلون فيها ويبادرون الى انكارها وتكذيبها، ويذهبون الى أبعد من ذلك فيقتلون الأنبياء.

وهذا العمى يوازي مسخ الانسان. فاذا كان من المفروض أن نقيس الانسان بمقياس العلم والمعرفة والايمان فان القرآن الكريم يؤكد على هذا الأمر.

وبديهي أن من يفتقر الى المعرفة والشعور والادراك والايمان لهو انسان ممسوخ، يصل في النهاية الى مرحلة يكون فيها أحط من البهائم.

«لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون».

(الأعراف: ١٧٩)

فليس من العجيب أن لايفهم نمرود وفرعون منطق ابراهيم و موسى ـ عليهما السلام ـ، وأن لايدرك خسرو برويز وقيصر وجبابرة مكة وآكلو الربا وأبوجهل وأمثالهم رسالة سيدنا محمد(ص) ومنطقه. وليس من العجيب كذلك ان لايعرف مستكبرو العصر وعملاؤهم شيئا عن مفاهيم الاسلام والثورة الاسلامية في عصرنا.

ان هؤلاء لايدركون مفاهيم الاسلام والانسانية، والمفاهيم الأخرى كالحرية والعدالة والتقوى والجهاد والشهادة وبقية آيات الله، في حين انها وجدت مكانا لها في أعماق قلوب المؤمنين وحتى أطفالنا، بحيث انهم يفهمونها بسهولة. والسر في ذلك يكمن في قوله تعالى:

«كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار».

النفور من الحق، مؤامرة واستكبار

وفي موارد أخرى يوقفنا القرآن الكريم على الحقيقة التالية:

«وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلاّ نفوراً* آستكباراً في الأرض ومكر السيّئ ولا يحيق المكر السيّئ إلاّ بأهله فهل ينظرون إلاّ سُنَّت الأولين فلن تجد لسُنَّت الله تبديلا ولن تجد لسُنَّت الله تحويلا» . (فاطر: ٤٢ــ٤٣)

تتحدث هذه الآية عن كراهية المستكبرين للحق الذي يبشر به الرسل. وهذا بنفسه رد فعل أعمى، وهو حصيلة الاستكبار.

ثم تضيف الآية ان المستكبرين العمي الذين يديرون وجوههم عن الحق لايقتنعون بهذا المقدار، بل يسعون من خلال مؤامراتهم ومكائدهم ومخططاتهم الى محو آثار الحق، والقضاء على مجال دعوة انبياء الله والحركات الالهية والانتفاضات الجماهيرية بحيث تتجلى هذه المؤامرات الخبيثة والدسائس القذرة في أبعاد مختلفة، كما لاحظنا ذلك من قبل.

و تؤكد الآية في الختام ان المستضعفين يجب أن يعلموا بأن مصائرهم ليست بأيدي المستكبرين، كما يجب عليهم أن لايتصوروا بأنهم محكومون لسلطة الاستكبار، وان المستكبرين يستطيعون أن يفعلوا مايشاءُون. وهي بهذا البيان تريد أن توضح كيف ان المستكبرين ساروا الى مقبرة الذل والنسيان والصمت.

ولذا فان على المستضعفين ان لايهابوا أية قوة مهما كانت،وأن لايتركوا المستكبرين يفعلون ما يحلو لهم، ذلك ان مجال الفناء والزوال قد وضع في ماهية عمل المستكبرين، ويلزم وجود نار لتحرق كيان هؤلاء. وتلك النار هي غضب المستضعفين، وتوقد بغضب الله لتحرق هذه الفئة المستبدة.

أما الملاحظة التي يجب التأكيد عليها هنا وبيانها فهي:

انّ عمى القلب الذي هو صفة للمستكبرين، ليس شيئا بحيث ان مجاله يتوفر دون اختيارهم، وبتعبير آخر: ان الجبر الالّهي هو الذي يتطلب ذلك.

وبصورة عامة فان الهداية والضلالة لم تقسَّما بين أفراد البشر دون حكمة واستحقاق واختيار من قبل الأشخاص المكلفين.

صحيح انه وردت العبارة التالية في القرآن الكريم: «**يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا...**»، ولكن العبارة التي تلي العبارة الآنفة تقول: «**... وما يضل به الاّ الفاسقين**». (البقرة: ٢٦)

ان الضلالة وان كانت مثل الهداية من عمل الله، غير أنها نشأت من مفاسد الضالين والذنوب التي ارتكبوها فاستحقوا اللعن والطرد.

والآيات الخاصة ببحث الاستكبار تؤكد أيضا بصراحة تامة على هذه الحقيقة، ولكن بتعبير آخر.

ان نوحا(ع) شكا الى الله من المستكبرين قائلاً:

«واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا».

(نوح: ٧)

ونقرأ في مكان آخر في وصف المستكبرين:

«وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون».

(البقرة: ٨٨)

انّ الآيتين الآنفتين تبيّنان بصراحة كاملة، فلسفة عدم فهم المستكبرين والتي تتمثل بالفسق والكفر والغرور.

* * *

المستكبرون في ضلال عميق

ان الآيات في هذا الباب كثيرة جدا لايتسع المجال لذكرها جميعها هنا، ولذا سنكتفي بآية واحدة فقط:

«سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين».

(الأعراف: ١٤٦)

ان الوعي والادراك والكمال لامكان لها في منطق المستكبرين، حيث ان الانفتاح على الانحطاط يعتبر طبيعة ثانوية لهؤلاء. انهم غرباء عن الحق والحقيقة، وهم ــ استنادا الى الأدلة التي أشرنا اليها ــ لايفهمون الايمان و آيات الله، كما انهم مكذبون وغافلون ضالون، ويلزم الحذر منهم لأن هدفهم الأساس هو جرّ الناس الى الطريق الذي ساروا فيه هم، وابعادهم عن الطريق الذي تدعو اليه الفطرة والوجدان.

المستكبرون، مسودة وجوههم في التاريخ

وأخيراً يحذر القرآن الكريم المستكبرين من النهاية المفجعة فيقول:

«بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين * ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين».

(الزمر: ٥٩ــ٦٠)

ان المستكبرين منبوذون على مرّ التاريخ، فلا قيمة لهم عندالله ولا عند عباده، لأنهم لم يبقوا لأنفسهم شيئا يستحقون من أجله العفو والصفح. انهم تعمقوا في الكفر والتمرّد والفساد والطغيان الى درجة فقدوا معها كل أمل.

وان صفحات التاريخ مسودة بسيرة المستكبرين اللئيمة. ومثلما سوّد هؤلاء حياة البشر وملأوها بالظلمة، فان ملفهم الأسود في محكمة التاريخ والضمائر الحية يتضمن جرائم لايمكن التغاضي عنها مطلقا. كما انهم يأتون الى الله في الآخرة بوجوه مسودة. وهذا هو المصير الحالك للاستكبار **«ظلمات بعضها فوق بعض».**

كما يقول القرآن الكريم في هذا المجال أيضا:

«حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون * لاتجأروا اليوم انكم منّا لا تنصرون * قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامرا تهجرون».

(المؤمنون: ٦٤ــ٦٧)

الاستكبار العلمي والرجعية

يقول المفسرون ان الآية آنفة الذكر نزلت في حق مستكبري قريش، هؤلاء الذين كانوا يبنون شخصياتهم من طريق تكذيب القرآن واللعب بآيات الله اذ كانوا يواجهون الكلمات الالهية بوجوه مستكبرة ومكذبة، و يعدّون أنفسهم لمواجهة القرآن بالخرافات وماشابهها من المؤامرات. وهذا هو الأسلوب القذر للمستكبرين، أعداء الحق الغارقين في تصوراتهم الباطلة والذين لايعرفون للحق معنى ومفهوماً، وهم بذلك يسيرون وفق حركة رجعية.

وهذا هو أيضا حال الثقافات الاستكبارية والرجعية والأفكار المادية والوضعية الفارغة في جميع أبعادها والتي تتستر اليوم بقناع الواقعية!

فتلك الثقافات ــ وعبر الاستناد الى التصور التالي وهو ان الواقعية تعني التحسس بالأشياء ولمسها ــ تعارض كل واقعية أخرى في ماوراء المادة، وقد شكلت جبهة استكبارية أخرى، بحيث يلزم اعتبارها استكباراً علمياً، استكباراً يؤدي الى الكوارث كأنواع الاستكبار الأخرى، وينتهي ــ لامحالة ــ الى الفشل.

وهنا يمكن أيضا الاشارة الى نوع آخر من الاستكبار العلمي، وهو ان العلوم والفنون والاكتشافات والاختراعات والعلوم الحديثة في عالمنا الراهن هي في الحقيقة أدوات طيّعة بأيدي المستكبرين، وتلعب دورا مؤثرا في تحقيق أغراض هؤلاء والمتمثلة بسياسة التسلط والنهب والقتل والافساد، بالضبط مثلما ابتلي علماء هذه العلوم والفنون بمثل هذا المصير المؤسف. وهذه هي كارثة انفصال العلم عن الدين.

ترى أي شخص لايعرف بأن أبعاد الفساد والجرائم على مستوى العالم قد ازدادت بشكل مرعب تزامناً مع تطور العلوم التجريبية وتطور الماكنة واختراع الأسلحة الحربية المتطورة الى درجة لايمكن معها بسهولة مقارنتها بجرائم البشر على مرِّ تاريخه الاجرامي.

لهذا، وبغية انقاذ البشر من مخالب مثل هذا الاستكبار فان رسالات الوحي والأديان قد قدّمت حلولا لهذه المشكلة، وهي: الخضوع للمعارف الالهية وتحطيم الأصنام المادية الجامدة، وتسليم زمام العلوم والفنون للمعنويات والايمان. ولا طريق آخر غير هذا لحل ومعالجة المشاكل القائمة في العالم.

جهنم، مأوى أبدي للمستكبرين

وبالتالي فان القرآن الكريم ولغرض تجسيد مصير المستكبرين، يتحدث مرة أخرى وبلهجة شديدة عن المصير المشؤوم لهؤلاء ، فيقول:

«انّ الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين».

(الأعراف: ٤٠)

انه يضع أمام المذنبين طريق التوبة ويعدهم بقبول توبتهم، وقلما يتحدث عن اليأس في آياته. ولكن عجبا للمصير الذي سيؤول اليه المستكبرون! اذ ليس

لهؤلاء حتى ذرة من الأمل، لا لأن رحمة الله الواسعة محدودة، بل بسبب خيانة هؤلاء وجرائمهم وشقاوتهم. فالطريق الذي انتخبوه لأنفسهم هو نار جهنم التي ستلفهم من الأعلى ومن الأسفل ومن ست جهات. وعلى حد قول القرآن الكريم: فاذا استطاع الجمل أن يخترق ثقب أبرة الخياطة، فان هؤلاء يمكنهم التفاؤل بأبواب الرحمة الالهية والخروج من جهنم والدخول في الجنة.

كيف يمكن لهؤلاء ـــ الذين ارتبطوابالأرض، وأغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة الالهيةـــ التفاؤل بانفتاح هذه الأبواب؟

و يجب على الذين تمردوا على الله والأنبياء، واستعبدوا عباد الله المظلومين، وصاروا سداً في طريق الله، ومُسخوا بقذارة أنفسهم الأمارة، أن لاينتظروا أو يتوقعوا سبيلا للنجاة، لأنهم أرادوا هذا الشيء لأنفسهم، وهذا هو مصير ابتلي به المستكبرون في السابق وسيبتلى به في المستقبل بقية المستكبرين.

يقول الامام علي(ع) في جانب من خطبته «القاصعة» والتي يمكن القول انها تدور ـــ على الأكثر ـــ حول محور الاستكبار والاستضعاف.

«فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته، واتعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم، واستعيذوا بالله من لواقح الكبر كما تستعيذون من طوارق الدهر».

(نهج البلاغه: الخطبة/٢٣٤/الفيض)

نأمل أن يأتي ذلك اليوم الذي لانرى فيه أي أثر للمستكبرين.

«فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين».

* * *

القسم الثاني
* الاستضعاف والمستضعفون *

رغم انه لايمكن الفصل بين البحث الخاص بـ «الاستضعاف والمستضعفين»، و بحث «الاستكبار والمستكبرين» و ذلك لوجود علاقة بين هاتين المسألتين الاجتماعيتين، لكن و لتوضيح أبعاد كل بحث، فقد بدأنا البحث حول الاستكبار وعوامله وآثاره، ومايتميز به المستكبرون من صفات، مستندين في ذلك الى الآيات القرآنية الكريمة. وهانحن الآن نريد خوض القسم الثاني من البحث والمتعلق بالاستضعاف والمستضعفين.

علينا قبل كل شيء ان نتأمل مفهوم الاستضعاف ومصاديقه، ومن ثم عوامله وخصائصه وآثاره. ولذا يمكن تلخيص البحوث القادمة في الأبواب التالية:

* مفهوم الاستضعاف والمستضعفين.
* الدوافع والعوامل.
* آثار الاستضعاف.
* اسلوب مواجهة الاستضعاف.

* * *

مفهوم الاستضعاف والمستضعفين

ان كلمة «الاستضعاف» مشتقة من «الضعف»، سواء كان ضعفا في الجسم أو البدن أو الحال.

يقول الراغب في «المفردات في غريب القرآن».

«والضعف قد يكون في النفس وفي البدن وفي الحال. وقيل: الضَّعف والضُّعف لغتان. قال الخليل: الضعف (بالضم) في البدن. والضعف (بالفتح) في

العقل والرأي»:

ونظراً لأن كلمة «الاستضعاف» هي من باب «الاستفعال»، فهي اذن في موقع المفعول به. ومن هنا جاءت كلمة «الاستضعاف» بمعنى كون الشيء ضعيفا.

يقول الراغب: «استضعفته: وجدته ضعيفا».

كما تأتي هذه الكلمة بمعنى اعتبار الشيء ضعيفا. وفيه فرق بسيط مع المعنى الأول. فلقد جاء في «مجمع البيان» و «الصحاح» و «القاموس»: (استضعفه: عدّه ضعيفا).

اذن؛ فالفرق بين المعنيين الآنفين هو:

ان الأول يعني توفر مجال للضعف والعجزفي وجود شخص ما، فيما لايكون توفر مثل هذا المجال لازما في المعنى الثاني.

وبتعبير آخر، قد يكون شخص ما ضعيفا احيانا، وبذلك يستغلّ ضعفه. وأحيانا لايكون ضعيفا، ولكن يعد ضعيفا وحقيرا، ويتعامل معه كما لويتم التعامل مع الضعفاء.

و خلاصة القول: ان الاستضعاف يعني أن يرى شخص ما شخصا آخر ضعيفا أو يعتبره ضعيفا من حيث الحالة المادية أو المعنوية أو الجسمانية أو الروحية أو العلمية أو الفكرية أو الثقافية، فيستغل ضعفه ويتحكم به. وكذا الحال بالنسبة للمجتمعات.

المستضعف من وجهة نظر الروايات

ان كلمة «المستضعف» في الروايات تطلق على كل شخص يكون ضعيفا من حيث المعرفة والادراك ، اما بسبب عدم نموه الفكري واما بسبب افتقاره الى المعارف وأحكام الدين. ولذا يتم التسامح مع هؤلاء في تكاليفهم، فيعفون من العقوبة بسبب عدم وعيهم أو عدم ابلاغهم بالحجة أو لأي سبب آخر غير اختياري.

و الآن لنتأمل الروايات التالية:

١. يقول الامام علي(ع) في الخطبة (٢٣١) من نهج البلاغة (الفيض):

«ولا يقع اسم الاستضعاف على من بلغته الحجة فسمعتها أذنه ووعاها قلبه».[1]

٢. قال الامام الصادق(ع):

«من عرف اختلاف الناس فليس بمستضعف»

(أصول الكافي ــ باب المستضعف ــ الرواية ٧)

٣. وقال أيضاً:

«ليس اليوم مستضعف، أبلغ الرجال الرجال والنساء النساء».

(الحديث ١٢: الكافي)

٤. عن زرارة، ان أبا جعفر(ع) قال:

«المستضعفون الذين لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا».

قال: لايستطيعون حيلة الى الايمان ولايكفرون: **«الصبيان، وأشباه عقول الصبيان من الرجال والنساء»**.

(المصدر السابق: الحديث ٢)

وهناك روايات أخرى في نفس السياق لانرى ضرورة للاشارة اليها هنا.

تحصل مما تقدم ان كلمة «المستضعف» تطلق أحيانا على من ينقصهم الفكر، ولا حيلة لهم الى المعرفة والادراك، ولذلك فلا ذنب لهم. وأحيانا أخرى تطلق على من يوجدون في جبهة الحق، لكن عدوّاً قوياً يسيطر عليهم بحيث يسلبهم أي قوة دفاعية. ومع ذلك تقع عليهم مسؤولية خاصة، ولكن بقدر امكانهم.

و لتوضيح البحث، نشير الى بعض الآيات القرآنية في هذا الباب.

«انّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا* إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا».

(النساء: ٩٧ــ٩٨)

فالآيتان الآنفتان تتضمنان عدة مسائل أساسية، هي:

* معيار الاستضعاف.
* المستضعفون الحقيقيون.

* عقوبة دعاة الاستضعاف.

* معيار الاستضعاف

ان معيار الاستضعاف هو الضعف وعدم الوعي. وهذا لايعني ان الانسان اذا اسلم نفسه الى الضلال، وقبل بالذل والمسكنة، ووقع في مصيدة المستكبرين فانه ـــ وبذريعة الاستضعاف ـــ يجب أن يمتنع عن التكليف، ويصفح الله عنه، ولن يحاسب في محكمة الضمير والتاريخ. كلا، ان المعيار هو عدم القدرة وعدم الادراك.

* المستضعفون الحقيقيون

ان المستضعفين الحقيقيين هم أولئك الذين هم في الأصل ضعفاء وغير واعين، بالضبط كما تشير الآية:

«إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان...».

* عقوبة دعاة الاستضعاف

أما دعاة الاستضعاف فهم الذين يستطيعون أن يدركوا ويبدواردود فعل من جانبهم ويهاجروا من ديارهم ويفروا من سلطة الجبابرة ويسعوا للبحث عن فضاء حر وأجواء يتوفر فيها العدل والايمان، لكنهم لايقدمون على ذلك، بل يتحملون الظلم، ويستسلمون الى المستكبرين، ويساعدون على تقوية مواقع هؤلاء. فهؤلاء ـــ واستنادا الى منهجهم غير الصحيح وتصوراتهم الخاطئة ـــ يمضون نحو النار، لينالوا عقاب الله.

وعلى أساس من هذا المعيار فان المجتمعات التي تمتنع عن القيام والتحرك والجهاد والشهادة، وعلى الأقل الهجرة الى ديار الايمان بذريعة الاستضعاف والجهل وعدم القدرة، تهيّئ الأجواء لاستمرار سلطة الجبابرة، تلك المجتمعات تستحق التوبيخ والاستنكار.

ولكي تتمكن تلك المجتمعات من التحرر، عليها أن تنتخب حلولا سنأتي الى تفصيلها في البحوث القادمة.

«واذكروا اد أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون».

(الأنفال: ٢٦)

ان المستضعفين ــ في رأي القرآن الكريم ــ هم تلك الأقلية غير القادرة على الدفاع عن نفسها أمام الجموع الضالة، والأجواء الاستكبارية الحاكمة، والتي يسيطر عليها الخوف بشكل لا تتمكن معه من فعل أي شيء.

فلو قاومت هذه الفئة في سبيل العقيدة والرسالة، لحظيت بتأييد الله ودعمه ونصره وحتى نعمه، وبتعبير آخر بعنايته الشامله.

«... قال ابنَ أمَّ انّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين».

(الأعراف: ١٥٠)

هذه القصة تبدأ هكذا: بعد أن تحرر بنو اسرائيل من سلطة فرعون اثر قيام موسى(ع)، وبعد أن ذهب(ع) الى الميقات ليناجي ربه ويتلقى منه التعاليم، صنع «السامري» عجلا من الذهب والجوهرات التي خلّفها الفراعنة، ودعا الناس الذين تحرروا لتوّهم من القيود الى عبادة ذلك العجل. فما كان منهم إلاّ أن أطاعوه وبدأوا يعبدون العجل، دون أن يأبهوا لتوجيهات وتحذيرات هارون الذي كان خليفة لموسى(ع) في أولئك القوم.

ولما عاد موسى(ع) ورأى ذلك الوضع انتقد الناس بشدة لانجرارهم الى الضلالة في غيابه.

وهنا ألقى موسى(ع) الألواح، وأخذ برأس أخيه هارون يجره اليه من شدة الغضب والألم، قائلا له: كيف تسمح لنفسك أن تتحمل مثل هذا الوضع ولم تتبع تعاليمي وارشاداتي؟ فما كان من هارون إلاّ أن قال في جوابه(ع):

«ان القوم استضعفوني».

تبيّن مما تقدّم ان المقصود بالضعف هنا، ليس الضعف الفكري والعقائدي، بل المقصود هو الضعف الظاهري، والافتقار الى الدعم الجماهيري.

و خلاصة القول: ان كلمة المستضعف في هذه الموارد تأتي بمعنى عدم القدرة، والافتقار الى الدعم الجماهيري.

يقول الامام علي(ع) في هذا الشأن في خطبته المعروفة بـ «القاصعة»:

«... ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم...».

كما يقول في جانب آخر من تلك الخطبة:

«... فلو رخّص الله في الكبر لأحد من عباده لرخّص فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه، ولكنه سبحانه كرّه اليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفّروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وكانوا أقواما مستضعفين، قد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة، وامتحنهم بالمخاوف، ومخضهم بالمكاره، فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد، جهلا بمواقع الفتنة والاختبار في مواضع الغنى والاقتار، فقد قال سبحانه وتعالى: (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون). فان الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في انفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم. ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي».

(الخطبة: ٢٣٤/ الفيض)

والنتيجة هي أنه لو أُطلقت كلمة المستضعف على الانسان المتواضع... صاحب العزة والكرامة، والعارف وغير اللئيم، والفقير الحال الذي لايملك من مال الدنيا شيئا، لكان ذلك مقبولا وممدوحا. ومع ذلك فان عباد الله المؤمنين الذين وردت تلك الصفات بحقهم هم من جانب آخر أشداء على الكفار وغير مرنين معهم:

«.... أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين...».

(المائدة: ٥٤)

و **«أشداء على الكفار رحماء بينهم...».**

(الفتح: ٢٩)

وهذا هو نهج عباد الله الصالحين. ولذا يجب عدم الخلط بين المفاهيم والموارد!

عوامل الاستضعاف ودوافعه

نظراً لأن الاستضعاف هو أسلوب عملي ينتهجه المستكبرون (أي الطبقة

الحاكمة المستبدة) في تعاملهم مع الطبقة المحرومة وغير الواعية من المجتمع، لذا ولغرض بيان العوامل يلزم الأخذ بعين الاعتبار هذين القطبين المتضادين في المجتمع مع ما يملكان من خصائص وميزات، والبحث عن تلك العوامل.

ان عوامل الاستضعاف في الطبقة المستكبرة هي نفس العوامل التي بيناها في بحث «الاستكبار»، والمتمثلة بـ: الكفر، النفاق، الثروة، الأهواء النفسية، الأنانية... والمؤامرات التي يدبرها المستكبرون لاستضعاف المستضعفين.

ولذلك لانرى ضرورة لاعطاء توضيحات أخرى. وما يهمنا هنا هو توضيح عوامل الاستضعاف في الطبقة المستضعفة.

فالعوامل هي:

١ــ الجهل: هذا العامل بيناه وتعرفنا عليه في البحوث السابقة التي استندنا فيها الى الآيات والروايات. ولذلك لانرى ضرورة للتطرق اليه مجددا.

٢ــ عدم امتلاك القدرة الاجتماعية، والافتقار الى الدعم الجماهيري. حيث أشرنا الى دلائل هذا العامل وشواهده في البحث الخاص بمفهوم الاستضعاف.

٣ــ تبعية المستضعفين للمستكبرين. وفي هذا الخصوص يصرح القرآن الكريم قائلا:

«وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انّا كنّا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواءٌ علينا اجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص».

(ابراهيم: ٢١)

فهذه الآية تصرح بأنّ مصائب المستضعفين تنشأ من اتباعهم الأعمى للمستكبرين ولما كانوا هم مختارين في هذا الاتباع انتفى عذرهم واستحقوا العقاب، لأن التبعية للمستكبرين لا تؤدي الى شقاء المستضعفين فحسب، بل وتوفر الأجواء لاتساع نطاق جرائم المستكبرين ولهذا السبب فان اطاعة الاستكبار تعدّ نوعا من الاستكبار، ومشاركة للمستكبرين في أعمالهم وجرائمهم.

هناك رواية عن الامام علي(ع) بخصوص ماورد في الآية آنفة الذكر،

حيث ورد في تفسير الصافي ان الامام ــ عليه السلام ــ قال بعد تأمله في تلك الآية:

«أفتدرون الاستكبار ماهو؟ هو ترك الطاعة لمن أمروا بطاعته والترفع على من ندبوا الى متابعته».

وعلى هذا الأساس فان الذين يمتنعون عن طاعة الله والرسول الأكرم(ص) والقادة الذين تجب طاعتهم، ويستسلمون للمستكبرين يكونون في عداد المستكبرين (وان كانوا يحملون لقب المستضعفين)، ويبتلون بنفس المصير الذي سينتهي اليه المستكبرون.

انّ المستكبرين قابعون في قصورهم ومنهمكون بالملذات، فيما ينفذ عملاؤهم ــ وأكثرهم من المستضعفين مع الأسف ــ المخططات المشؤومة. فأفراد الجيش والشرطة والدرك والجمارك في النظام الاستكباري هم من المستضعفين.

حيث يسلم السلاح والقلم اليهم ليقدموا ــ مقابل أجور ضئيلة ــ اكبر الخدمات للمستكبرين.

ان المستضعفين هم الذين يحرسون قصور المستكبرين المنهمكين بلهوهم وطربهم، بل هم الذين يسحقون الانتفاضات الجماهيرية ويمارسون التعذيب بحق السجناء، في حين انهم ينتمون الى طبقة محرومة حتى من أبسط الأشياء!

ولو وقعت حادثة، لهرب المستكبرون تاركين عملاءهم يقعون في الأسر. وحتى ان الذين يقتلون في الحروب والمعارك الظالمة انما هم من أبناء هذه الطبقة المحرومة، في حين لايشارك في تلك المعارك والحروب حتى شخص واحد من أبناء المستكبرين والحكام والذين بأيديهم زمام الأمور!

وهنا بالذات نعي عمق بيان القرآن الكريم حول مسؤولية المستضعفين. فلا عذر لهؤلاء من وجهة نظر القرآن، ولا معنى هنا لمقولة «المأمور معذور».

ولتوضيح الأمر أكثر، نورد الآية الأخرى من سورة ابراهيم(ع) التي تلي تلك الآية، والتي تتحدث عن النزاع بين الشيطان وأتباعه يوم القيامة:

«وقال الشيطان لما قضي الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ اني كفرت بما اشركتمون من قبل انّ

الظالمين لهم عذاب أليم».

(ابراهيم: ٢٢)

قلنا فيما مضى ان ابليس كان أول مستكبر في عالم الوجود، فيما واصل بقية المستكبرين من الشياطين الكبار والصغار والقوى العظمى وعملاؤها خلافة ابليس.

ولذا فان ما يقوله القرآن الكريم عن ابليس وأتباعه، يصدق كذلك على المستكبرين والمستضعفين الذين يتبعون المستكبرين، بالضبط مثلما أثبتت ذلك تجارب تاريخ الاستضعاف عبر آلاف السنين.

وكما لاحظنا في قصة ابليس، فان ابليس عندما انتهى من اغوائه للبشر، ترك أتباعه وتهجّم عليهم، مدعيا انه لم يجبرهم على عمل شيء بل وجّه اليهم دعوته فأطاعوه، حتى ان القرآن الكريم لم ينف الاحتجاج المذكور، مما يؤيد القبول به. ومع ذلك لا تتم تبرئة أي من الطرفين، لا ابليس ولا أتباعه. وهذا هو مصير المستضعفين.

فالمستكبرون وبعد أن يستخدموا فئةً ما، يستضعفون بها فئة أخرى، وبعد أن يعبروا جسر النصر، يتخلون عن عملائهم الذين طردتهم شعوبهم وغضب الله والخلق عليهم، ويستبدلونهم بفئة أخرى. وكنموذج بارز على ذلك هو مافعله الانجليز مع (رضا شاه)، والأميركيون مع (الشاه المقبور).

وهناك نماذج كثيرة في هذا الخصوص في التاريخ. كما ان المستكبرين يعدون المستضعفين بتحسين أوضاعهم المعيشية وسد ما يحتاجون اليه من ملبس ومسكن وطعام ليستطيعوا بذلك استغلالهم الى اقصى حد ممكن. وعندما يحسون بتحركهم ضدهم يخنقون أنينهم في حناجرهم ويسحقونهم، لا لذنب سوى انهم يطالبون بحقوقهم الانسانية المشروعة. وهذا ما حدث من قبل ويحدث اليوم في جميع انحاء العالم سواء في الدول الرأسمالية أو الشيوعية أو الاشتراكية.

نعم، هذه هي اوضاعهم في الحياة الدنيا، وان أوضاعهم في الحياة الآخرة لهي أسوأ بكثير.

اذن، هكذا يفعل المستكبرون. ولكن ماهو المطلوب من المستضعفين في قبال هذه القضية؟ هذا السؤال سنجيب عنه في موقعه.

محاكمة المستضعفين

والآن لنتأمل آيات أخرى في هذا المجال، ترفض بصراحة تامة أعذار المستضعفين في تبعيتهم للمستكبرين، وتعدهم بعذاب مشترك:

«ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين * قال الذين آستكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون».

(سبأ: ٣١ــ٣٣)

المساهمة في زيادة الظلم

ان الآيات الآنفة تصف المستكبرين ومن يتبعهم من المستضعفين بـ «الظالمين» وياله من تعبير رائع ومناسب، فلو عبّرنا عن الظلم بالشرك بموجب «ان الشرك لظلم عظيم»، لكان للظلم هنا مفهوم مناسب، ذلك ان الاستكبار هو شرك، كما ان التبعية للمستكبرين هي الأخرى شرك (شرك الطاعة على الأقل).

ولو كان ظلم الغير هو المقصود، فان المستكبرين هم أفضل مصداق لهذا الظلم، لأنهم ظلموا حتى أنفسهم.

ولذلك فهم يظلمون الآخرين وأنفسهم كذلك.

واذا كان المقصود هو ظلم النفس، فان أولئك المستضعفين قد شاركوا المستكبرين في عملية ظلم النفس.

ولذا يمكن القول: ان الظلم بجميع مفاهيمه يصدق هنا.

ادانة المستضعفين لتعاونهم مع المستكبرين

ان المستضعفين غير معذورين في تبعيتهم للمستكبرين، لأن الأنبياء(ع) جاءوا فبثوا الوعي في الناس وبينوا لهم طريق النجاة والفلاح. هذا من جهة،

ومن جهة أخرى وعد الله المستضعفين بالنصر والغلبة على المستكبرين، وتفويض خلافة الأرض اليهم.

و على هذا الأساس فان القوى الانسانية لكونها تحت اختيار الجماهير التي عليها أن تتحد معا لتهدم صروح الشرك وتقضي على المستكبرين، فان أي تسامح وتساهل في هذا الأمر، يكون مرفوضا وغيرمقبول، وتترتب عليه عقوبات في الحياتين الدنيا والآخرة.

وتشير الآية في ختام حديثها الى أن هؤلاء وبمراجعتهم لضمائرهم سيعترفون بأنه كان عليهم عدم تجاهل نداءات الأنبياء والسير وراء المستكبرين.

و ان كلمة «الندامة» لقادرة على تبيين هذا الاعتراف الوجداني بدقة!

وخلاصة القول: ان الآيات آنفة الذكر تصف تلك الفئة من المستضعفين التي تستسلم وتخضع لهم بـ «الظالمين» و «المجرمين» و «الكافرين»، مؤكدة أنها ــ عبر طاعتها لأقطاب الاستكبار ــ ستدخل جهنم لامحالة.

وهذا تحذير كبير للمستضعفين الذين عليهم أن لايستسلموا للمستكبرين وأن لايضحوا بالقيم الانسانية من أجل هؤلاء، خاصة وانهم قادرون على فعل كل شيء، وهم الذين يجب عليهم أن يقرروا مصائرهم بأنفسهم.

الآثار الأخرى للاستضعاف

رغم اننا تحدثنا فيما مضى من البحث عن مفاهيم الاستكبار والاستضعاف ومصاديقهما و آثارهما، لكننا وبهدف اكمال البحث نرى أن نتحدث هنا عما تبقى من الآثار. ولذلك نورد آية أخرى عن الاستضعاف تبيّن آثاره، ومن ثم ندخل في تفصيلاتها:

«انّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين».

(القصص: ٤)

لو أردنا أن نعدد آثار الاستكبار على ضوء هذه الآية، فاننا نستطيع أن نلخصها بما يلي:

١ــ بث الفرقة.

٢ــ الاستعباد.

٣ــ قتل النفس.
٤ــ الفساد الخلقي.
٥ــ الافساد في الأرض.

ولتبيين أبعاد مفاهيم هذه الآية، لابدّ هنا من اعطاء توضيح كامل عن كلمة «الشيع».

يقول اللغويون وأهل الأدب عن كلمة «الشيع» التي هي جمع لكلمة «الشيعة»:

أــ انّ كلمة «الشيع» تعني المتابعة.

(أساس البلاغة/ للزمخشري)

ب ــ الشيعة من يتقوى بهم الانسان وينتشرون عنه.

(المفردات/ للراغب)

ج ــ «الشيع: الفرق. وكل فرقة شيعة. وسموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضا».

(مجمع البيان/ للطبرسي)

كما انه جاء في «مجمع البيان» ان كلمة «الشيعة» تعني المشايعة والمتابعة، مثل آية: «وانّ من شيعته لابراهيم». كما عبروا عن تلك الكلمة بالفرقة، كما في الآية: «كما أرسلنا من قبلك من شيع الأولين».

و (الشيعة: الفرقة، اذا اختلفوا في مذهب وطريقة).

نستنتج من دراستنا لموارد استعمال كلمة «الشيع» و آراء المفسرين واللغويين فيها، ان لهذه الكلمة مفهومين، هما: التكتل والمتابعة.

وتجدر الاشارة هنا الى أن تشكيل، أية جمعية أو فرقة اذا ما جاء لغرض هدف منطقي **والهي بعيدا** عن الخلافات والأهواء النفسية، واذا كانت التبعية قائمة على أساس ذلك الهدف المتجسّد في الوجوه المحبوبة والالهية وقادة الدين، فانه يكون أمراً معقولا ومشروعا والزاميا، كما ينص القرآن والعقيدة الاسلامية على ذلك.

١ــ بث الفرقة

يمكن اعتبـــار الفـرقة والخلاف حصيلتين لسلطة المستكبرين، وعاملين في الابقاء على الاستكبار والاستضعاف. وبتعبير آخر: ان المستكبرين يستغلون أوجه الخلافات في مجتمع ما لـلسيطـرة على السلطة، من جهة، ولـغـرض تـقوية سلطتهم الاستكبـاريـة وتثبيتهـا، يـعتقدون انـه يـلزم الهاء المجتـمـع المستضعف بالخلافات والحروب الداخليـة والاقليمية والطائفيـة والعنصرية من جهـة اخرى وان لم يكن هناك اختلاف، فانهم يفتعلونه بأية وسيلة كانت.

ولذا يمـكـن القول: ان بـث الـفرقـة وتصـعيد الخلافـات هما مـن عـوامل الاستضعاف. فالأنظـمـة الاسـتكبارية عبر آلاف السنين لجأت الى هـذا السلاح الـفتاك، اذ ان الحـروب الوطنيـة والطائفـية والعـنصـرية والعشـائرية والـداخلية والاقليمـية، بل والـباردة، انما أشعـل فتيـلها المستـكبرون. و متى مـا انطفأت هذه النار اثر حركة اصلاحية، سارع المستكبرون الى ايقادها من جديد وتوسيع نطاقها.

أما الـرسل والمصلحون الالهـيون فلم يتقاعسـوا حتى ولا للحظة واحدة عن تحقيق وحـدة الـكلمة بين المستضـعفين وشد القلـوب الى بعضها، كما أنهم خـاضوا بسـلاح الـتـوحيد الذي هـو أسـاس الـوحـدة، صراعا مع المسـتـكـبرين ومخططاتهم الشيطانية والمنافقة.

ان الـقرآن الـكريم وعبر ذكـره لـلـمـوهبـة الالهـيـة في طريـق وحـدة الأمة الاسلاميـة والتـحرر من سلطة الجـبابرة، يدعو الأمـة الاسلامية الى الوحـدة مذكّراً إيّاها بالأيام التي كانت تحترق فيها في ظل الحكم الاستكباري، حيث يقول:

«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فـأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون». (آل عمران: ١٠٣)

وهناك اليوم كثير من المستضعفين في العالم، وهم ــ في الواقع ــ يشكلون الأكثرية من سكان الأرض... أكثرية تعاني من نير أقلية مستكبرة.

وهذه الأكثرية تستطيـع في ظل هدف مشترك أن تنهض لتحـرير نفسها. وسـواء أكانت تلك الأكثرية من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود أو البوذيين أو الهندوس، أو حتى من الأشخاص الغـرباء عن الدين، فانها تواجه عدواً مشتركاً ألا

وهو الاستكبار العالمي! عدواً لايعرف للدين والمذهب معنى ومفهوما، ولا يؤمن إلاّ بأهدافه الاستكبارية ومطامعه الاستعمارية، وبالنفط والدولار أينما وجدا.

وكما يلجأ الى الدين في بعض الأحيان ليستخدمه كسلاح في سبيل تحقيق أغراضه الدنيئة، فانه يسعى للقضاء عليه في الحالات التي يقف فيها عائقاً في طريقه.

ولا تختلف لديه القارات والمناطق، سواء أكانت أفريقيا أو آسيا أو الشرق الأوسط أو الشرق الأقصى أو أميركا اللا تينية أو الصين أو الهند، أو ما الى ذلك من قارات ومناطق في العالم.

كما لاتختلف لديه القوميات واللغات والعرقيات، لا الأسود ولا الأبيض، ولا العربي ولا العجمي، فالمهم ان يثبت سلطته الجائرة والعدوانية.

ترى لو ان الشعوب المستضعفة (من أي دين أو قومية كانت) اتحدت فيما بينها تحت لواء واحد ــ وهو لواء المستضعفين ــ بعيدا عن المسائل المختلف عليها في المجالات الدينية والمذهبية، وسارت نحو هدف مشترك، وحسب تعبير القرآن الكريم «كلمة سواء» باعتبارهم أبناء لآدم يعانون من جور و ظلم آلهة الأرض، وتستغل قدراتهم من قبل المستكبرين الشرقيين والغربيين ابتداءً بأميركا وأوروبا الغربية وانتهاءً بالدول الاشتراكية المقتدرة! لو اتحدوا، فأية قوة تستطيع أن تصمد في وجه هذا البحر المتلاطم للشعوب المعذبة والمتمردة والمستعدة للتضحية والايثار؟!

أما أساس هذه الحركة فيتمثل فقط و فقط بالوحدة والاتحاد.

ان قائد الثورة الاسلامية الامام الخميني ــ حفظه الله ــ أكد مراراً على أن مستضعفي العالم يستطيعون ــ بعيداً عن الخلافات المذهبية والعقائدية ــ أن يشكلوا جبهة واحدة ضد المستكبرين، ويواصلوا كفاحهم المرير لاسقاط الأنظمة الاستكبارية.

وأما مسلمو العالم

فانهم يشكلون ــ اليوم ــ جزءاً من المستضعفين، جزءاً عظيما تتجاوز نفوسه المليار، وينعم بالكثير من الثروات كالنفط والذهب والنحاس والأراضي

الصالحة للزراعة والبحار والأنهار والمناخات الجوية الملائمة وغيرها من النعم الأخرى، وأهم من ذلك كله المصادر والثروات المعنوية والمعارف السماوية والماضي العريق والثقافة الأصيلة.

حقا ان الله سبحانه و تعالى قد تلطف على هذه الأمة بنعمه المعنوية والمادية... الطبيعية والانسانية... الأرضية والسماوية.

ولو كان مسلمو العالم بنفوسهم البالغة مليار شخص قد اتحدوا تحت لواء الله والدين والقرآن والقبلة والرسول الأكرم(ص)، وساروا بنهج واحد، لكان على العالم أجمع أن يخضع لهم، كما كانت الحال بالنسبة للاسلام والمسلمين في الماضي.

واستنادا الى هذا الواقع لم يسمح أعداء الاسلام منذ الأيام الأولى والى اليوم أن تظل هذه القوة العظيمة محافظة على نفسها، ولذلك أوجدوا فيها فئات لتتنازع فيما بينها، كما أقاموا الدول والحدود، ومزقوا كيان الأمة الاسلامية بالحدود الجغرافية والعرقية، وأشعلوا بينها أنواع الحروب.

و بديهي ان حكام الدول الاسلامية كان لهم دور أساسي في هذه القضية، لأن الشعوب تستطيع أن تتفاهم فيما بينها وتعمل من أجل تحقيق الأهداف المشتركة. لكن بما ان الحكومات قد باعت أنفسها لأعداء الاسلام اللدودين، فقد أصبحت بدورها عاملا لبث الفرقة والخلاف بين الأمة الاسلامية.

٢ـ الاستضعاف والاستعباد

كما استنبطنا من كلمة «الشيع» فان من آثار تسلط الاستكبار تجريد المستضعفين من شخصيتهم واستقلالهم، وبالتالي انتزاع قدرة المقاومة منهم.

ان المستكبرين وعبر السيطرة على آلة الانتاج والثروة والسلاح والسلطة والثقافة الاستعمارية، واللجوء الى آلاف المكائد والحيل، يكوّنون لأنفسهم نوعا من الشخصية بحيث يرعبون بها الفقراء والمحرومين غير الواعين، ويحاولون عبر تحقيرهم لهؤلاء أن يخلقوا لديهم هذا التصور، وهو انهم تنقصهم الشخصية المطلوبة، أو انهم ليسوا بشرا! وان كانوا، فانهم انما خلقوا لخدمة الأغنياء والأشرار والمستكبرين!!

مثلا ان السبطي خلق لخدمة القبطي، والأسود لخدمة الأبيض، والأفريقي والآسيوي لخدمة الأوروبي والأميركي وو.... الخ!!

ومن دواعي الأسف ان تجار العلم من الذين يسمّون أنفسهم فلاسفة وعلماء، وعلماء اجتماع، كانوا يقدمون لهذه السياسة الاستكبارية مسوغات علمية، وبذلك وضعوا العلم في خدمة الاستكبار.

الاستعباد في عصر حقوق الانسان!

عندما نتحدث عن الاستعباد فلا يتصور ان مقصودنا هو الاستعباد على مستوى فردي، ليقال ان نظام العبودية قد ولّى. كلاّ! ان عبودية اليوم لا تتم على مستوى فردي، وحبذا لوكان نظام العبودية في وقتنا هذا مثلما كان عليه في السابق!

ان مليارات من المستضعفين على وجه الأرض تعاني ــ اليوم ــ من عبودية جماعية، عبودية سياسية وعسكرية وثقافية وفكرية واجتماعية واقتصادية وما الى ذلك من عبوديات أخرى. فعندما يكون الانسان مسلوب الارادة والاستقلال، لن يستطيع أن يقرر مصيره بنفسه، بل يستغله الآخرون، وبالتالي يستعبدونه.

وهل للعبودية مفهوم آخر غير هذا؟

ان المستكبرين ــ اليوم ــ يستعبدون مليارات من الناس الأحرار على وجه الأرض ويتلاعبون بمصائرهم ومقدراتهم، ويديرون حكوماتهم حسب ما يحلو لهم، ويدونون منهاج حياتهم حسب ما تقتضيه السياسات الاستكبارية للشرق والغرب والبيت الأبيض والكرملن وقصر الأليزيه ويسلمونها اياهم، ثم يقدمون تمثيلية اسمها (الإنتخابات الحرة!) في الدول التابعة لهم تحت اشراف الجيش والشرطة (كما حصل ذلك في لبنان حين سيطر الكتائبيون الصهاينة على السلطة) في حين ان الشعوب لا تدري من الذي يمثلها في البرلمان، ومن صار وزيراً أو قائداً او رئيساً للجمهورية. وكذلك الحال بالنسبة لثقافتهم واقتصادهم وثرواتهم ومصادرهم وأراضيهم ومياههم وما يملكون من أشياء أخرى.

وهذه القضية نشاهدها بوضوح في جميع دول العالم الثالث، من أفريقيا الى آسيا، ومن النيل الى الفرات، حيث ان عملاء أميركا والصهيونية هم الذين

يسيطرون عمليا على السلطة.

وقلما نجد اليوم دولة كايران الاسلامية التي قد حطمت بثورتها المباركة هذا اللغز الساحر، وأنهت العبودية، وحطمت قيود الاستكبار، وطبّقت ــ عمليا ــ شعار «لاشرقية ولا غربية» الذي هو شعار قرآني واسلامي، وتمردت على المستكبرين الشرقيين والغربيين، وتدير نفسها بنفسها. نعم؛ ان كارثة استعباد مستضعفي الأرض ليست أمرا سهلا يمكن تجسيد شبحه المخيف عبر هذه السطور، كما ان بيان ما تعانيه الشعوب المستعمرة على أيدي المستكبرين الشرقيين والغربيين يحتاج الى وقت طويل كيوم القيامة.

هذا في حين ان رسل الله جاءوا ليحرروا البشرية من العبودية وطاعة غير الله، ومن قيود الذل.

يقول القرآن حول الهدف من بعثة الرسول الأكرم(ص):

«ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم».

أما الامام علي(ع) فيقول في هذا الصدد:

«أما بعد: فانّ الله تعالى بعث محمداً(ص) ليخرج عباده من عبادة عباده الى عبادته، ومن عهود عباده الى عهوده، ومن طاعة عباده الى طاعته، ومن ولاية عباده الى ولايته».

(الحياة، ج ٢، ص ٣٧٤، نقلا عن الوافي)

وفي مكان آخر يقول(ع):

«لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً».

(نهج البلاغة الرسالة: ٣١ــ الفقرة ٤٦ من الفيض)

ففي الوقت الذي تكون فيه العبودية والعهود والطاعة والتسليم والولاية في ظل الحكومة الالهية مقتصرة فقط على الله جلّ شأنه، فانها في الحكومات الاستكبارية تكون مقتصرة على آلهة الثروة والذهب والأصنام المتحركة.

وفي السلطات الالهية، يكون الناس في ظل حماية رب العالم وعناياته اللامتناهية، وانّ أي قانون يشرّع لهم يتناسب ومصالحهم وتكاملهم المادي والمعنوي، في حين ان الناس في الأنظمة الاستكبارية يكونون موجودات ممسوخة وعبيدا مسلوبي الارادة ومعذبين وفاشلين، وتكون جميع القوانين معادية لحقوقهم

وقيمهم، وتتحد جميع القوى لاستعبادهم واستغلالهم.

٣ــ الاستضعاف والتعذيب والقتل

يواجه المستكبرون في بعض الأحيان أثناء تنفيذهم للمخططات الجهنمية، مقاومة من قبل الشعوب المعذبة والمضطهدة. وان سياسة السحق والقتل التي تمارس بحق المتمردين على الظلم لهي مسألة طالما شهدها التاريخ، فمتى ماظهرت حركة قوبلت بعنف وسحقت بقسوة.

والآية مورد البحث تكشف النقاب عن هذه السياسة الاستكبارية بعبارة: «يذبّح أبناءهم» وتجسد الجرائم التي كان ينفذها المستكبرون طوال آلاف السنين والتي كانت تأخذ أبعاداً أخرى على مرّ الأيام.

و ان التاريخ الأسود لملف المجازر التي حدثت قبل قرون عديدة، وخلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما يحدث الآن في فلسطين المحتلة، وفي لبنان على أيدي الامبريالية الأميركية والصهيونية العالمية وعملائهما، وفي أفغانستان على يد الجيش الأحمر المحتل ومرتزقته، وعند الحدود الايرانية ــ العراقية على أيدي البعثيين الصهاينة الذين يحكمون العراق والذين ثبتت عمالتهم لأميركا والاتحاد السوفياتي وسائر مجرمي العصر، وما يحدث في سائر انحاء العالم، كل هذه الأمور تبيّن وتجسّد لنا هذا الواقع.

والمستضعفون اليوم أمام طريقين لا ثالث لهما فإمّا الموت وإمّا الحياة. إمّا أن يقبلوا الموت التدريجي المتصف بالذل والمسكنة، ويسلموا أنفسهم والاجيال القادمة الى المستكبرين (وهذا ما يخالف روح الحرية والكرامة الانسانية) وإمّا أن يواصلوا مقاومتهم ضد الاستكبار الى أن يقضوا على خصومهم القذرين (وهذا مايلزم أن يفعله الأحرار كما أنه يعتبر أوامر من جانب الأنبياء ويتحتم على البشر تنفيذها).

والقرآن الكريم باعتباره أكمل وأشمل كتاب لمنهاج حياة الانسان منذ ولادته والى يوم القيامة، يحدد الوظيفة بالعبارة التالية: **«قاتلوا ائمة الكفر»**.

وسيتبيّن لنا خلال البحوث القادمة ان الجهاد ضد المستكبرين بهدف تحرير المستضعفين يعتبر أصلا تؤكد عليه وتوصي به الآيات القرآنية، وان الامتناع

عنه يؤدي الى زيادة مظالم المستكبرين وتترتب عليه عقوبات الهية.

٤ـ الاستكبار والفساد الخلقي

ان الآية آنفة الذكر وضمن بيانها للسياسة الاستكبارية المتمثلة بقتل الرجال والشباب والأطفال الذكور الذين ينتمون الى طبقة المستضعفين، تشير الى مسألة أخرى تعكسها عبارة «ويستحيي نساءهم».

فلقد كان الاستكبار يقتل الذكور ويبقي على النساء. لكن لماذا؟ أكان بدافع الرحمة والعطف؟! كلا بالطبع! لأن المستكبرين ليست لهم صلة بالرحم والعاطفة! وهم في الواقع غرباء على الخصال الانسانية الجيدة.

اننا ومن خلال الدقة والتأمل، نصل الى النتيجة التالية وهي أن الإبقاء على النساء في قاموس المستكبرين الذين يقتلون الأطفال الذكور والشباب يأتي في الحقيقة لغرض انتهاك حرماتهنّ.

ففي ظل مثل هذه الأنظمة، يستفاد من النساء المستضعفات كخليلات أو خادمات في بيوت المستكبرين لتربية أطفال هؤلاء والعناية بهم مقابل لقمة عيش، كي تبقى بيوت المستكبرين بعيدة عن متاعب الحياة الزوجية، ويتمكن المستكبرون دون أي عناء و مشاكل من الامعان أكثر فأكثر في ملذاتهم وأهوائهم أوأن يتركن لحالهن يعشن في الطرقات ويتسولن لسد رمقهن. وكثيرا مايحدث أن يقعن في مكائد الانتهازيين وعبدة الشهوات، فيعتدى عليهن وتنتهك حرماتهن وهذه جريمة أخرى يرتكبها المستكبرون بحق المستضعفين.

وبغض النظر عن قصة بني اسرائيل ووضع النساء والبنات في عصر سلطة فرعون، فاننا لو ألقينا نظرةعلى المجتمعات المستضعفة والأجواء التي تحكم فيها أنظمة الاستضعاف، وأجرينا دراسة لآثار الحروب والمجازر الوحشية، لتوصلنا الى النتيجة التالية: وهي ان وضع الأطفال المشردين والبنات والنساء اللائي يفتقرن الى من يحميهن، وأوضاعهم الأخلاقية، كل هذه الأمور هي من أبشع المسائل الأخلاقية للمجتمع والتي فرضها الاستكبار على المستضعفين. وان وضع النساء اللاتي تشردن بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية واللتين أشعلهما المستكبرون والمجرمون لهو أكبر دليل على هذا المدّعى، وكذا بالنسبة للشواهد الحية الأخرى في

المراحل المختلفة.

بديهي انه بعد كل مجزرة تبقى بعض النساء والبنات بحيث ان مجال الانحراف والفساد في المجتمع يؤثر عليهن لامحالة.

ومن هنا نلمس ضرورة الاهتمام بهذه المسألة وايجاد الحلول للمسائل آنفة الذكر وازالة العقد والنقائص التي يوجدها الحرمان. ويلزم على مسؤولي مجتمع مستضعف فيما لو أرادوا مواجهة هذا الخطر المدمّر أن يهيئوا برنامجا يتناسب والضوابط الأخلاقية والاحتياجات الضرورية والثقافية والاجتماعية لتتمتع مثل هذه النساء والبنات بالدعم المادي والمعنوي، وتتم المحافظة عليهن من الناحيتين الأخلاقية والثقافية.

وكما نعلم فان الاسلام ولغرض تعويض الخسائر المذكورة وتأمين احتياجات نساء الشهداء وبناتهم، له توصيات، حيث ان سيرة النبي(ص) وأساليبه في حماية هؤلاء الأشخاص في الأبعاد المادية والمعنوية والعائلية تستطيع أن تكون أسوة يقتدى بها.

المستكبرون، مفسدون في الأرض

لما كان المستكبرون أشخاصا تمردوا على الله ونظام الخلقة، ويعتدون على عباد الله فان وجودهم هو مادة الفساد وعصارة التخريب والشرّ والشقاء.

ان الاخلال بالنظام الطبيعي للمجتمع، والتلاعب بالقوانين الالهية، وبث الفرقة بين الناس، والاستعباد والقتل، ونشر الفساد الأخلاقي والمالي وغيرها... هذه الأمور تعتبر بمجموعها من المستلزمات الضرورية لبقاء الاستكبار.

ولا يقتنع المستكبرون بهذا المقدار، كما لايكتفون بمحاربة المستضعفين، بل يحاربون الأرض والزمان ويهلكون الزرع والنسل كذلك. وعلى حد قول القرآن الكريم: «ويهلك الحرث والنسل». حتى ان الطيور والأسماك والحيوانات البرية ليست بمأمن من خطرهم.

ومن الأساليب التي لجأ الاستعمار اليها في القرون الماضية، القضاء على الزراعة والمواشي في الدول المستضعفة، كي تبقى تلك الدول محتاجة ــ دائما ــ للقمة تسد بها رمقها، وتمد أيديها الى الدول الاستكبارية. ولكي تحصل على لقمة

خبز عليها أن تقدم ما تملك من ذهب وبترول وثروات الى هؤلاء، وتضع تحت تصرفهم الفرص السياسية والقواعد العسكرية والامكانات الأخرى، بحيث لو أرادت الدول المستضعفة أن تفكر في التمرد على المستكبرين وأسيادهم، لأرعبوها بالحصار الاقتصادي والتدخل العسكري، وبحرمانها من الماء والطعام، وبإراقة دماء أبنائها.

وتزامنا مع هذه المؤامرة، فانهم يشغلون الشعوب المستضعفة بمظاهر الحياة المتطورة الخلاّبة، وبمصانع التجميع لتكون مرتبطة بهم اذا ما أرادت ان توفر لنفسها مستلزمات مثل هذه الحياة، ويكون سلاح الحصار الاقتصادي مصلتا على رؤوسها كي لا تتنفس قط.

والذي يثير الدهشة ان الدول الاستكبارية تعتبر نفسها صاحبة فضل على الشعوب المستضعفة لانها زودتها بمثل هذه الأشياء بقيمة حياتها واستقلالها وسيادتها وشرفها وفرض الخبراء والعملاء عليها. وبالمقابل نهبت ماتملكه تلك الشعوب.

هذا من الناحية المادية والاقتصادية.

وأما من الناحية المعنوية، فان الفساد الأخلاقي لهو أسوأ بكثير من الفساد المالي والاقتصادي. لأن نشر الفساد الأخلاقي وايجاد الانحراف النفسي والوجداني والجنسي بين أبناء الشعوب المستضعفة وخاصة جيل الشباب هو من الاسلحة الفتاكة التي يستعملها الاستكبار لتحقيق اغراضه الدنيئة.

فالمستكبرون ــ ولغرض منع الشعوب المستعمرة من الوصول الى الوعي والتمرد والانتفاض ــ، يصدرون الى الدول المستضعفة الفساد من الشرق والغرب وخاصة أميركا وأوروبا، من مواد مخدرة ومشروبات كحولية، الى مجلات مضللة وقبيحة وخليعة ومبتذلة.

ومن المسرحيات والأفلام السينمائية والتلفزيونية الى الأفكار التي تشجع على ايجاد أماكن يمارس فيها الفساد.

والمؤسف ان الدول الاسلامية رغم ما لها من ماض مشرق وثقافة دينية غنية لم تسلم من هذه الكارثة، اذ ان اكثر حكومات هذه البلدان هي من افسد وأقذر حكومات العالم.

وهذا الوضع يشمل حتى المتطفلين على تلك الحكومات، كما ان بقية فئات المجتمع لم تبق هي الأخرى في مأمن من هذا السم القاتل. وعدا ذلك فان الطبقة الفقيرة ليست محرومة من الحياة العادية فحسب، بل انها محرومة كذلك من الثقافة والمعنويات.

هذا هو الشبح المرعب للفساد الذي يلقي بظله على المجتمعات المستضعفة والذي أوجده الاستكبار والقوى العظمى والعملاء.

ويوجد من بين هؤلاء المفسدين المستكبرين من يلعب دور المصلح، بل وحتى دور الحريص على الدين، ويصف في نفس الوقت المصلحين الالهيين بالمفسدين والمخربين!

يقول القرآن الكريم على لسان فرعون الذي كان نموذجا للفساد في مصر:

«... ذروني أقتل موسى وليدع ربّه اني أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد».

(غافر: ٢٦)

كما يذكر القرآن الكريم بعض المفسدين الذين يستغلون اسم الاسلام لاخفاء نواياهم بقوله: **«ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام* واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد* واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد»**

(البقرة: ٢٠٤ـ٢٠٦)

ان الآيات آنفة الذكر تجسّد الصورة السياسية للحكام الذين يفسدون في المجتمع تحت غطاء الاسلام، ويطلقون على أنفسهم اسم المصلحين!

وابرز مصداق لهذه الآيات، هو الحكومات التي تتظاهر ـ اليوم ـ بالاسلام، والتي جعلت من شعوبها عبيدا للقوى الكبرى، وسلّمت بلدانها الى تلك القوى لتفعل ما يحلولها.

ان المليارات من أموال هذه الدول تقدم للشرق والغرب للحصول على الأسلحة المتطورة، وبالتالي تسليمها الى المجرمين أمثال صدام ليهاجموا بها الشعبين المسلمين العراقي والايراني ويلوثوا مياه الخليج الفارسي عبر تفجير الآبار والحقول

النفطية «**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس**».

وتفيد الاحصائيات المنشورة ان حجم المساعدات التي قدمتها الدول الرجعية في المنطقة الى النظام العراقي ليحارب بها الجمهورية الاسلامية في ايران، بلغ أكثر من (٢٠٣) مليارات دولار. وفي هذه الأثناء تعهدت السعودية بدفع مايترتب على العراق من ديون الى فرنسا على حساب الشعب السعودي الذي يعاني معظمه من الظلم والجوع!

واليوم فان دكتاتور العراق يأخذ من السعودية وبعض دول المنطقة جزية مقدارها مليار دولار شهريا تصوراً منه انه بهذه الأموال يتمكن من القضاء على الجمهورية الاسلامية في ايران! وادخال الفرحة الى قلوب مستكبري العالم، والقيام بدور بطل القادسية!

واستنادا الى بعض المحاسبات فان تخفيض سعر البترول من قبل الدول المنتجة للنفط ــ وخاصة الدول العربية الرجعية وفي مقدمتها السعودية ــ لصالح الشركات النفطية المستغلة، وعلى رأسها الشركات الأميركية، يضر بالشعوب المستضعفة التي تملك النفط بمقدار (٤٠) مليار دولار سنويا.

ان جرائم هؤلاء لايمكن بيانها ببعض الكلمات والسطور.

وما أوردناه كان قطرة من بحر الجرائم والفساد لهذه الحكومات العميلة والمأجورة والفاسدة والمفسدة.

مسؤولية المستضعفين في قبال المستكبرين

تحدثنا فيما سبق عن المسؤولية الملقاة على عواتق المستضعفين في قبال المستكبرين. لذلك فبالأخذ بنظر الاعتبار تلك الموارد، فاننا سنجري ــ هنا ــ المزيد من الدراسة للأبعاد الأخرى من هذا البحث.

لقد قلنا: ان كلمة «الاستضعاف» مشتقة من الضعف، بمعنى عدم القدرة. كما درسنا أبعاد الضعف من النواحي النفسية والعقائدية والثقافية والمادية والمعنوية.

والآن واستمراراً لبحثنا في بيان مسؤولية المستضعفين، نضيف بأنه لو كان الضعف خارجا عن ارادة الانسان أي اذا كان الانسان لايستطيع دفعه ويبتلى به

بحكم القدر، فيمكن آنئذ التساهل معه. لكن اذ قبل بالضعف، وكان قادرا على طرده، ولم يفعل ذلك، فلن يكون معذورا من حيث الوجدان والشرع والعرف.

ان أنبياء الله وأولياءه لم يستسلموا للضعف قط، وكانوا يصارعونه بكل قواهم.

يقول القرآن الكريم في وصف الأنبياء الذين كانوا يتعرضون لهجمات المستكبرين ويتحملون مصائب كثيرة في هذا المجال:

«وكأيّن من نبيٍّ قاتل معه رِبِّيُّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلاّ أن قالوا ربنا اغفرلنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين».

(آل عمران: ١٤٦ــ١٤٨)

تبيّن الآيات الآنفة حال الأصحاب الخاصين والمضحين للأنبياء، هؤلاء الذين كانوا يجاهدون في سبيل تقوية الرسالة، ويتحملون ضربات الأعداء والمصائب والمشقات، ويتسابقون الى الشهادة، دون أن تضعف عزائمهم أو يشعروا بالضعف والهوان حتي في أسوأ الحالات، ويطلبون من الله أن يثبت أقدامهم ويلهمهم المقاومة امام الأعداء. حتى اذا كان نبيهم يستشهد ويقتل جميع أصحابه، فانهم كانوا لايتفرقون بل يحرسون معاقل المقاومة دون ان يشعروا بأدنى ضعف أمام العدو.

لقد كانوا خاضعين لربهم الى درجة انهم يطلبون منه جلّ شأنه ان يغفر لهم ذنوبهم وهم الذين كانت لهم أسمى الدرجات.

وبالنتيجة فان الله سبحانه وتعالى يمنحهم الأجر والثواب في الدنيا والآخرة.

أما ثواب الدنيا الذي يتحدث عنه القرآن الكريم، فيتمثل بالفتح والنصر والعزة والغنيمة، فيما يتمثل ثواب الآخرة بالجنة.

لقد ورد في «مجمع البيان» عن أبي جعفر(ع) في تفسير الآية المذكورة أن معركة «أحد» هي من مصاديق تلك الآية، اذ ان العدو كان قد أشاع بأن النبي(ص) قد قتل، وقتل معه عدة من اصحابه.

لذلك تدعو الآية المسلمين الى عدم الشعور بالضعف حتى و ان قتل النبي وأصحابه.ذلك ان الشعور بالضعف أمام العدو انما يقوي العدو، ويجعله بالتالي يضعف ماتبقى من القوى، ويلحق هزيمة بالمسلمين. وعندها لايبقى أثر للرسالة ولا لأتباعها.

وخلاصة القول: ان الانسان المسلم يجب أن لايشعر بالضعف مقابل عدوه، حتى و ان كان في أسوأ الأحوال والأوضاع.

يقول الامام(ع) في وصف أحد أصحابه:

«كان لي فيما مضى أخ في الله، كان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجا من سلطان بطنه... وكان ضعيفا مستضعفا، فان جاء الجد فهو ليث عادٍ وصِلٌّ وادٍ».

(الكلمة ٢٨١: نهج البلاغة)

يقول مفسرو نهج البلاغة: ان الشخص الذي اعتبره الامام علي(ع) أخاً له في الله، كان «عثمان بن مظعون» أو (أباذر الغفاري).

اننا نعرف هذين الصحابيّين الكبيرين، كما قرأنا وسمعنا الكثير عن أبي ذر و كفاحه ومقاومته وصراحته وجهاده، وبالتالي نفيه على يد حكام عصره.

لقد كان مستضعفا، لكنه لم يكن ضعيفا، ولم يقبل بالاستضعاف، بل كان ينتمي الى فئة المستضعفين والمحرومين. فمنذ اليوم الأول الذي جاء فيه الى الرسول(ص) بعباءة بالية والى اليوم الذي مات فيه من الجوع في صحراء «الربذة» لم يتطفل على المستكبرين، ولم يقبل الرشوة منهم، وكان ـــ على الدوام ـــ ينتقد التحريف والمظالم وخاصة في ظل الحكومة الأموية في الشام.

نعم؛ هذا هو معنى الاستضعاف، وإلاّ فان عقله ودرايته وعلمه وايمانه وزهده وتقواه، كل هذه الأمور قد شهد عليها الرسول الأكرم(ص). فمتى ما كان يتطلب الدفاع عن الحق كان يصبح ليثا هصوراً، ومتى ما كان يتطلب أن يتصدى للباطل، فانه كان سيفا بتاراً، وبالتالي فانه والى لحظة وفاته لم يستسلم للمتجبرين.

ولو اقتفى بقية المستضعفين أثره، لما كان هناك اليوم أي أثر للمستكبرين، ولكان مصطلح «الاستكبار» قد حذف من قاموس المجتمع. وهذا

ما يؤكد عليه القرآن الكريم.

والآن لنتأمل بعض الآيات التي تعتبر الجهاد في سبيل المستضعفين فريضة مهمة، وتنتقد التقاعس عن هذا الأمر:

«وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً».

(النساء: ٧٥)

هذه الآية تتضمن الملاحظات التالية:

أ ــ لو كان المستضعفون (مثل الأطفال والنساء والرجال الضعفاء) غير قادرين على تشكيل جبهة أمام المستكبرين بغية التصدي لمظالمهم، فعلى بقية المسلمين أن يسارعوا لنجدتهم، ويجاهدوا ضد المعتدين من أجل دفع الظلم والاعتداء. أما التقاعس عن هذه الوظيفة فتترتب عليه عقوبات الهية.

ب ــ ان الجهاد في سبيل المستضعفين، معطوف على الجهاد في سبيل الله، وهذا الأمر بحد ذاته يحظى بأهمية خاصة.

نعم؛ ان الجهاد في سبيل المستضعفين هو استمرار للجهاد في سبيل الله، ذلك ان الله سبحانه وتعالى لمّا كان غير محتاج لعباده، ولما كان الدين والرسالة والامامة والأحكام والقرآن الكريم وغيرها من الأمور الأخرى قد جاءت لتحرير البشر وانقاذهم، لذلك فان الذين ينتفضون لتحرير الانسان من مخالب المستكبرين، انما ينتفضون في الواقع من أجل الله تعالى، وان جهادهم هو في سبيل الله.

جـ ــ ان الجهاد في سبيل المستضعفين ليس له أية شروط، ولا يعرف للعنصر والقبيلة والحدود الجغرافية معنى، لذلك يجب على المسلمين أينما كانوا أن يثوروا لانقاذ المستضعفين، ويواصلوا كفاحهم حتى تحرير هؤلاء، حتى وان لزم ان يذهبوا من مدينة الى أخرى ومن بلد الى آخر. وفي الحقيقة ان هؤلاء هم اولياء الله الذين يستجيبون لاستغاثة المستضعفين.

والخلاصة: انه مادام هناك في العالم مستكبر يستضعف الآخرين، فان الجهاد يعتبر وظيفة شرعية، ولا يجوز القاء السلاح والتخلي عن الجهاد.

هجرة المستضعفين

لولم تكن للمستضعفين حيلة، وكانوا عاجزين عن التصدي للمستكبرين، فلا يحق لهم أن يقفوا موقف المتفرج على جرائم هؤلاء ويسكتوا عليها، اذ ان الحل الوحيد الذي يجب عليهم أن يلجأوا اليه هو الهجرة، أي أن يهاجروا من ديار الكفر والظلم، الى ديار أخرى يستطيعون فيها العمل بحرية.

يقول القرآن الكريم في هذا الخصوص:

«انّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً».

(النساء: ٩٧)

وكما أشرنا من قبل فان سكوت المستضعفين على مايرتكبه المستكبرون من جرائم ومفاسد، يعني مشاركة هؤلاء في ظلمهم، لذا يجب على المسلمين أن يخرجوا من هذا الوضع. فان استطاعوا فعليهم أن يجابهوه، والآفعليهم أن يهجروا تلك الديار، ذلك ان أرض الله واسعة، ولأن الأوضاع ليست متشابهة في كل مكان.

ان الهجرة عامل مهم في المحافظة على الرسالة وجبهة الحق. فمتى ما أصبحت جبهة الحق أقلية، ولم تكن الأوضاع مناسبة لتوسيع نطاق الرسالة والدفاع عن كيان الاسلام، فان الهجرة تكون لازمة وضرورية.

وان أنبياء الله و بقية المؤمنين عندما كانوا يواجهون أوضاعا متأزمة، وتغلق في وجوههم أجواء المجتمع والمحيط الذي يعيشون فيه كانوا يهاجرون. فلقد قرأنا وسمعنا الكثيرعن سنّة الهجرة في سيرة ابراهيم وموسى (عليهماالسلام) والرسول الأكرم(ص) وأصحاب الكهف و أصحاب الرسول(ص) وحركة الامام الحسين(ع)، حيث ان ظلم المستكبرين أمثال نمرود وفرعون ودقيانوس وعبدة الأوثان في مكة ويزيدي العصر، كان يقف سداً في طريق الدعوة الى الرسالة وحراسة الأهداف الالهية، في حين انه من المحتمل ان توجد في دار الهجرة أجواء مناسبة لتحقيق تلك الأهداف ولذلك فان قبول الاستضعاف في مثل تلك الحالة مرفوض بالمرّة.

وخلاصة القول: ان المستضعفين يجب الا يختفوا خلف الأبواب المغلقة

ويلتزموا السكوت ازاء الاستكبار، لأنهم يستطيعون أن يهاجروا ان لم تكن لديهم القدرة على فعل أي شيء.

و تجدر الاشارة الى ان الهجرة وفق الظروف المذكورة قد تتيح الفرصة للمستضعفين كي يجدوا اصدقاء لهم ويتمكنوا من الدعوة الى الرسالة. وهذا ما يساعد على تقوية جبهة المستضعفين وتشكيل قوة جديدة يمكن بواسطتها وعبر الاتحاد والتضامن خوض الصراع مع المستكبرين، بالضبط كما فعل الرسول الأكرم(ص) واصحابه حين هاجروا الى المدينة وأعدوا أنفسهم لفتح مكة واستئصال جذور الاستكبار.

مواجهة الاستضعاف

وهنا نرى من اللازم ان نورد جانبا من الحديث التوجيهي للامام علي(ع) الذي كان عدواً لدوداً للاستكبار، وعونا للمستضعفين، اذيبيِّن(ع) في خطبته القاصعة مسؤولية المستضعفين في قبال المستكبرين، فيقول:

«... ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم! الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربّهم، وجاحدوا الله على ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه، فانهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهلية. فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً، ولا لفضله عندكم حسّاداً. ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق، وأحلاس العقوق. اتخذهم ابليس مطايا ضلال، وجنداً بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم، ودخولاً في عيونكم، ونفساً في أسماعكم فجعلكم مرمى نبله، وموطئ قدمه، ومأخذ يده...».

وفي الواقع انه لايمكن تجسيد صورة المستكبرين بالشكل الرائع الذي جسّده الامام عليه السّلام في الخطبة المذكورة، حتى انه بيّن وظيفة المستضعفين في قبال المستكبرين بشكل لايحتاج الى شرح.

مسؤولية العلماء في قبال المستضعفين

لما كان العلماء والمسؤولون الواعون في مجتمع ما لسان حال ذلك المجتمع ودليله، كان عليهم أن يحملوا على عواتقهم أخطر المسؤوليات في عملية التصدي للاستضعاف. يقول القرآن الكريم بلهجة حادة مخاطباً علماء أهل الكتاب الذين لاينهون المستكبرين عن مظالمهم وعن أكل السحت:

«وترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يعملون* لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون» (المائدة: ٦٢ــ٦٣)

فالحديث في الآيتين الآنفتين يدور حول تلك العدة من أهل الكتاب التي مسخت نفسها وسقطت في وادي الاستكبار عبر اتخاذها للمواقف المنافقة، وكفرها الباطني واستسلامها لطواغيت العصر. ثم يدور الحديث عن الروحانيين، اذ تنتقدهم الآية لسكوتهم على كل تلك الجرائم والمفاسد والفسق.

فهل يتصور أولئك الروحانيون انهم ــ ببقائهم داخل المعابد والصوامع، وغرقهم في الخيال والأوهام، والجلوس مع أتباعهم في محافل اللهو والطرب، والسكوت على جبروت المستكبرين وظلمهم للمستضعفين ــ قد قاموا بواجباتهم ودفعوا عن أنفسهم العقوبات الإلٰهية؟!

كلا؛ ان مصير النهج الذي يسير عليه هؤلاء سيكون أسود، وانهم سيذوقون العذاب الالهي لامحالة **«لبئس ما كانوا يصنعون»**.

حقا ان أفعال هؤلاء لقبيحة، وان صاحب الفعل القبيح لن يترك دون عقاب.

تحذير علماء الدين المسلمين

يجب أن لايتصور ان هذا الخطاب أو العتاب موجه فقط لعلماء أهل الكتاب، ذلك ان علماء الدين المسلمين (من شيعة وسنة) لو أرادوا أن يسيروا على نفس النهج غير المعقول وغير المشروع، وامتنعوا عن التصدي للمستكبرين والدفاع عن المستضعفين، فانهم سيواجهون بدورهم لوماً أشد وعقوبة أكبر، وتفصيلها خارج عن بحثنا هذا وقد تحدثنا بعض الشيء عنها خلال البحوث السابقة.

وهنا نرى من الضرورة بمكان أن نورد جزءاً من حديث الامام الحسين(ع) الذي خاطب به علماء الاسلام ومحدثيه.

ومع ان حديثه(ع) مفيد جداً ومؤثر للغاية، ويلزم الاستلهام من كل كلمة من كلماته، إلاّ اننا وبدافع الاختصار، نكتفي بنقل جزء منه.

ان حديثه (عليه السلام) يبدأ بآية تخاطب الروحانيين وأهل الكتاب «لولا ينهاهم الربانيون والأحبار...». و بعد أن يورد آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويبيّن أهمية ودور هاتين الوظيفتين الكبيرتين في احياء تعاليم الدين الالهي وأحكامه وشرائعه، ينتقل في حديثه الى حملة العلم والحديث وعلماء الدين، مؤكداً لهم ان مايحظون به من احترام وتقدير ومقام بين الناس يأتي فقط و فقط بهدف انتفاضتهم وسعيهم لاحياء الدين، والدفاع عن حقوق المسلمين، في حين ان تلك الفئة من علماء الدين (اشارة الى العلماء والروحانيين غير الملتزمين والعملاء للمستكبرين) قد تجاهلت مسؤولياتها، ولا تفكر الا بأهوائها النفسية واسناد الحكومات المتجبرة، فتحولت الى جسر لمظالم هؤلاء. ثم يواصل الامام عليه السلام حديثه بلهجة حادة منتقدا هؤلاء بقوله:

«... ذلك بأن مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه، فأنتم المسلوبون تلك المنزلة، وما سلبتم ذلك إلاّ بتفرقكم عن الحق، واختلافكم في السنة بعد البيّنة الواضحة. ولو صبرتم على الأذى، وتحملتم المؤونة في ذات الله كانت أمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، واليكم ترجع، ولكنكم مكنتم الظلمة من منزلتكم، وأسلمتم أمور الله في أيديهم، يعملون بالشبهات، ويسيرون في الشهوات، سلطهم على ذلك فراركم من الموت، واعجابكم بالحياة التي هي مفارقتكم، فأسلمتم الضعفاء في أيديهم، فمن بين مستعبد مقهور وبين مستضعف على معيشته مغلوب، يتقلبون في الملك بآرائهم، ويستشعرون الخزي بأهوائهم، اقتداء بالأشرار، وجرأة على الجبّار، في كل بلد منهم على منبره خطيب يصقع، فالأرض لهم شاغرة، وأيديهم فيها مبسوطة، والناس لهم خول، لايدفعون يد لامس، فمن بين جبّار عنيد، وذي سطوة على الضعفة شديد، مطاعٍ لايعرف المبدئ والمعيد...».

(تحف العقول: ط ٥ / ص: ١٦٩)

ان الامام الحسين(ع) يجسّد في هذه الخطبة الوضع الذي كان قائماً على

النحو التالي:

١. فئة مستبدة ومستكبرة وجبارة وفاسدة ومفسدة وناهبة ومتسلطة على مقدرات الناس.

٢. أناس مستضعفون ومظلومون وفقراء ومحرومون يعانون من نير الفئة الأولى.

٣. فئة من وعاظ السلاطين تعمل لصالح المستكبرين وتسوّغ مظالمهم.

وفي مثل هذه الظروف والأحوال نرى قادة الاسلام الواعين والمؤمنين قد اعتبروا السكوت ذنبا كبيرا، وانتفضوا ـ انطلاقا من مسؤوليتهم ـ للدفاع عن الدين والمستضعفين، وفضح المستكبرين، والقضاء عليهم واستئصال جذورهم.

ان الحسين(ع) باعتباره أكبر أسوة في هذا الأمر، أثبت عمليا انه يمكن بمساعدة عدة معدودة، ولكن ذات ارادة صلبة، الانتفاض في وجه الاستكبار والاستضعاف، والسير الى الأمام حتى حدود الشهادة، والعودة بالنصر في هذا الكفاح والجهاد.

ورغم انه(ع) وأصحابه قد استشهدوا في جهادهم، وتم أسر عوائلهم، إلاّ أنهم عبر تلك الضربة المدمرة التي وجهوها للاستكبار ، قد أنهوا عمر النظام الأموي المستبد والمستكبر.

انه درس أعطاه الامام الحسين(ع) للعلماء والروحانيين وجميع المؤمنين. وحقا انه يلزم معرفة الأتباع الحقيقيين للحسين(ع) بهذه العلائم، وهي أن يواصلوا طريق الحسين(ع) لينهوا عمر الاستكبار حتى وان استشهدوا في هذا الطريق.

نهاية الاستضعاف والمستضعفين

انّ آخر جزء من بحثنا يتناول المحطة الأخيرة التي سيستقر فيها المستضعَفون والمستضعِفون. فاستنادا الى القوانين المنطقية القائمة في عالم الخلقة، والتي يؤكد عليها القرآن الكريم، فان نهاية المستكبرين المستضعِفين (بكسر العين) ليست إلاّ الفشل والفناء والاضمحلال، في حين أن المستضعفين (بفتح العين) لهم مستقبل مشرق في تاريخ حياة البشر.

والقرآن الكريم يشبه الباطل بالفقاعات التي تطفو فوق سطح الماء والتي

سرعان ماتزول وتختفي مثل السراب، فيما يشبه الحق بالماء الذي هو مادة الحياة، أو بالذهب المذاب الذي مهما غيّر شكله فانه يبقى ذهبا. ولما كان نافعاً فانه يبقى **«أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»**.

(الرعد: ١٧)

هذا هو التشبيه الكلي للحق والباطل. أما بالنسبة للمستكبرين والمستضعفين فهناك آيات صريحة نورد اثنتين منها:

«فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون».

(الأعراف: ١٣٦، ١٣٧)

هاتان الآيتان والآيات التي تسبقهما وتليهما تبيّن ماضي الفراعنة وبني اسرائيل الذين يرى فيهم القرآن الكريم نموذجا للاستكبار والاستضعاف على الترتيب، كما اتضح لنا ذلك خلال البحوث السابقة. اذ ان الله جلَّ شأنه أغرق فرعون وأعوانه في قعر البحر، ثم القى بجسد فرعون على الساحل كوثيقة لجرائم المستكبرين وادانتهم، ليكون عبرة للأجيال القادمة وبقية المستكبرين، ولكن يبدو ان المستكبرين هم اكثر حمقاً من أن يأخذوا العبر من تلك التجارب والدروس.

وبديهي ان فرعون لم يكن المستكبر الوحيد الذي بقي جسده معلقا على اعواد المشنقة بعد اعدامه، اذ اننا وفي كل يوم نشاهد هذا العقاب الالهي في تاريخ البشر. ولكن على حد قول الامام علي(ع):

«ما أكثر العبر وأقل الاعتبار». (نهج البلاغة/ الحكمة ٢٩٧)

أما بالنسبة لنهاية مستضعفي بني اسرائيل، فان الله سبحانه وتعالى أنقذ هؤلاء القوم، وحررهم من دسائس فرعون، وفوّض اليهم السلطة على أرض مصر، لكنهم لم يكونوا كفوئين لحراسة هذا الميراث والمحافظة عليه وذلك ان انفتاحهم على عبادة الأوثان والسامري، ومعاداتهم السافرة للحق والحقيقة، وخاصة معاداتهم للاسلام ورسالة سيدنا محمد(ص)، أمور غير خافية على التاريخ وان القرآن الكريم

يشير اليها دائما.

فعلى سبيل المثال نرى احدى الآيات القرآنية تخاطب المسلمين الذين أصبحوا ورثة الأرض بقولها:

«ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لـمّا ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبيّنات وما كانوا ليؤمنوا، كذلك نجزي القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون».

(يونس: ١٣ــ١٤)

لقد لاحظنا كيف أن ورثة الأرض هؤلاء قد ساروا تدريجيا وبمرور الزمان في نفس الطريق الذي سار فيه فرعون، وكنموذج على ذلك هو الوضع الراهن للاسرائيليين الصهاينة والمعتدين. فرغم ان هؤلاء المعتدين الغاصبين والظالمين لا تربطهم أدنى رابطة بموسى كليم الله، لكنهم يستغلون اسم موسى (ع)، في الوقت الذي تمتلئ فيه كياناتهم بآلاف الفراعنة والهامانيين والبلاعمة الباعوريين.

وهناك آيات أخرى تجسّد المصير الذي سيؤول اليه المستكبرون والمستضعفون، منها:

«ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون».

(القصص: ٤ــ٦)

ورغم ان الآيات الآنفة نزلت بخصوص فرعون وهامان، وموسى (ع) و آل يعقوب، غير ان الآية الثانية تبيّن أصلا كليا ومهما قائما في تاريخ الاستضعاف والمستضعفين، ألا وهو:

أولا: ان جملة «ونريد أن نمنّ» هي صيغة للمضارع، وتعني استمرار الفعل. وعلى هذا فان مفاد هذه الجملة هو: ان ارادة الله التاريخية والقائمة تبتني على أن يشمل المستضعفين برحمته وعنايته ويورثهم الأرض.

ثانيا: **«ان الذين استضعفوا في الأرض»** ليسوا فقط آل يعقوب الذين

كانوا مستضعفين في مرحلة ما من التاريخ، حيث ان الاستضعاف لايقتصر عليهم وحدهم.

ثالثا: ان جملة «ونجعلهم أئمة» لا تقتصر فقط على آل يعقوب(ع).

لذلك فبالأخذ بنظر الاعتبار الانحرافات والنقائص التي كانت مشهودة في بني اسرائيل، وما أبدوه من ذلة وهوان ومسكنة، وعلى حد قول القرآن الكريم:

«... وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيّين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون».

(البقرة: ٦١)

نعم، بهذا النهج والموقف العدائي الذي اتخذه اليهود وبنو اسرائيل ضد الله والرسل، لم يكونوا كفوئين لقيادة البشر. ولذا يجب أن نستنبط من هذه الآية مفهوما ومصداقا آخر بالضبط مثلما ورد في التفاسير والأحاديث.

يستنبط من الروايات المتعددة في تفسير هذه الآية ان المستضعفين الذين سيقودون الأمم، هم من أصلح أفراد الأمة الاسلامية ومن أبناء خاتم النبيين(ع).

ذلك انه بالأخذ بنظر الاعتبار خاتمية رسالة نبي الاسلام(ص) وعالمية هذه الرسالة الالهية الجامعة والمتعالية، وما ورد في بعض الآيات القرآنية من ان الاسلام سيشمل العالم كله، وتأكيد الدلائل العقلية والنقلية على ان الدين الأفضل يجب ان يبقى ويجب أن يرث الصالحون الأرض، فلن يبقى هناك أدنى شك في أنّ تلك العدة من المستضعفين التي تحمل على عاتقها مسؤولية إمامة البشرية، ليست سوى النخبة من هذه الأمة التي تتبع هذا الدين.

و على سبيل المثال لا الحصر نورد هنا بعض الروايات في هذا الباب والتي تدل على المضامين المذكورة أعلاه وامامة الاسلام من قبل أفضل وأبرز أبناء الاسلام وألمع الشخصيات من أبناء الرسول(ص).

لكن و قبل كل شيء علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار المسألة التالية وهي: ان جميع الأنبياء(ع) قد بشروا أممهم برسالة سيدنا محمد(ص)، وأكدوا جميعا على بسط سلطة الدين الحق ووراثة المؤمنين الصالحين.

كما تؤكد الأخبار المنقولة عن طرق أهل السنة والشيعة والمتواترة عن خاتم الأنبياء(ص) على إمامة أفضل وأبرز أبناء الرسول(ص) وقيام العدل الكلي في

العالم بامامة المهدي ــ عجل الله تعالى فرجه الشريف ــ.

والرواية أدناه قد أوردها الفريقان في كتب الحديث، ويتفق عليها المسلمون

«لولم يبق من الدهر إلاّ يوم لبعث الله فيه رجلا من عترتي (وفي رواية من أهل بيتي) يملأها عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجوراً» و في رواية: **«اسمه اسمي»**.

و هذه الرواية أخرجها أبو داوود والترمذي وابن ماجة.

(نور الأبصار للشبلنجي ــ هامش ــ ص ١٣٣ ــ ١٣٤)

و (كتاب التاج الجامع للاصول في احاديث الرسول ج ٥، ص ٣٤٣).

كما ورد في كثير من الروايات ان هذا الرجل يدعى المهدي(ع) وهو من أبناء فاطمة والحسين ــ عليهما السّلام ــ على سبيل المثال لنتأمل الرواية التالية:

«قال رسول الله (ص): المهدي من ولدي».

(هامش نور الأبصار للشبلنجي. أخرجه الروياني والطبراني وغيرهما، ص ١٣٣، ١٣٤).

و في كتاب **«التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول»** تأليف الشيخ منصور علي ناصف (من علماء الأزهر) نقلت الرواية التالية بسند أبي داوود والحاكم.

اذ أوردت أم سلمة عن الرسول(ص) قوله:

«المهدي من عترتي من ولد فاطمة».

كماوردت في الكتاب المذكور الرواية التالية:

«عن علي(ع) قال وقد نظر الى ابنه الحسين(ع): ان ابني هذا سيد كما سماه النبي(ص)، وسيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق».

ولقد جاء في شرح الرواية الآنفة في هامش الكتاب المذكور: **«الرجل هو المهدي الذي يشبه النبي في الأفعال والأخلاق، ولا يشبهه في كل الصورة»**.

كما وهناك رواية نقلها الروياني وأبو نعيم**والديلمي والطبراني** نورد جانبا منها: **«المهدي رجل من ولدي وجهه كالكوكب الدري... يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً يرضى بخلافته أهل السماء وأهل الأرض»**.

ان الروايات آنفة الذكر وأمثالها التي تبلغ الآلاف قد وردت بأسانيد في كتب السنة والشيعة، وتؤكد على ان الذي سيقيم القسط والعدل في العالم هو

المهدي الموعود(عج) وهو من أبناء الرسول(ص) وعلي والحسين ـــ عليهما السلام ـــ.

وسيأخذ على عاتقه خلافة وامامة الأرض، فيما سيكون اصحابه الصديقون خلفاء على الأرض، لأنهم مؤهلون لامامة البشر.

ومن هنا نرى انه يتم في الأحاديث المروية عن الأئمة(ع)، الاستناد الى الآية المذكورة لاثبات حكومة الحق واقامة القسط والعدل على يد الامام المهدي(عج) وكمثال على ذلك نورد رواية عن الامام علي(ع):

«والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها، عطف الضروس على ولدها...» وتلا عقيب ذلك هذه الآية: **«ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين»**.

(الكلمة ٢٠٠، باب الحكم، نهج البلاغة ـــ فيض الاسلام)

وأما وراثة الأرض

فان الوعد الذي قطعه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وبقية الكتب السماوية هو:

«ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون * ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين».

(الانبياء: ١٠٥ـــ١٠٦)

لقد قرأنا في الآيات السابقة من سورة القصص فيما يخص حكاية موسى(ع) وفرعون أن الله قرر أن يورث المستضعفين الأرض بعد افناء المستكبرين **(... ونجعلهم الوارثين)**.

ورغم ان الآية المذكورة قد وردت في قصة بني اسرائيل وتعلن عن وراثة هؤلاء بعد فرعون، غير ان وراثة العالم بمجموعه ـــ وكما ورد في سورة الأنبياء ـــ لهي شاملة لحركة تاريخ البشر كلها.

و بهذا نخلص بالنتيجة ان وراثة الأرض التي هي للمستضعفين، ليست لكل المستضعفين، بل للصالحين منهم فقط، طبقا للآية **«يرثها عبادي الصالحون»**، ذلك انه لايمكن لأيّ مستضعف ان يصبح اماماً للناس، او ان يرث الأرض، بل يقتصر ذلك على المستضعفين الذين هم أهل للامامة ويحملون خصال وصفات

الانسان الكامل. فالامام يعني القدوة والأسوة والنموذج.

و على هذا فان على المستضعفين التنسيق مع امام المستضعفين في العالم ــأي الذي بشّرالنبي بقدومه ــوعليهم اتباعه في كل شيء، والامامة في حال غيبة المهدي(عج) اليوم تتجسد في قيادة الثورة الاسلامية في العالم الاسلامي، التي انطلقت من ايران الاسلام، لتنقذ مستضعفي الأرض ــخاصة مستضعفي الأمة الاسلامية ــ .

الخلاصة: ان على المستضعفين ان يتخذوا طريقا للخلاص والانعتاق مستمداً من الرسالة التي ترفض كفر وشرك الاستكبار، وتعتبر ذلك جزءاً أساسياً من مبادئها وتركيبتها والقرآن الكريم يدعو جميع الموحدين وحتى أهل الكتاب بسبب امتلاكهم لمواقف توحيدية مشتركة، بالشكل التالي:

«قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله».

(آل عمران: ٦٤)

و على هذا الأساس فان المستضعفين سواء المسلمون أو اليهود أو المسيحيون يستطيعون اليوم ــولغرض هدم معاقل المستكبرين الشرقيين والغربيين والصهيونية والامبريالية والامبريالية الاشتراكية ــأن يتمردوا على الكفر العالمي، ويتحرروا ــعبر الاتكال على الله تعالى ــ من جميع القيود.

أما بالنسبة للمسألة الأساسية التي تتمثل بوراثة الأرض وامامة النوع الانساني على مستوى العالم، فان وراثة الأرض ــوكما أشير مسبقا ــ تقتصر فقط على المؤمنين الصالحين، وأتباع الامامة الحقة والعادلة التي حدد معالمها سبحانه وتعالى والرسول الأكرم(ص).

وهنا نرى من الضرورة بمكان أن نورد جانباً من الخطاب التاريخي للامام الخميني القائد بمناسبة الذكرى السنوية العشرين لانتفاضة الخامس من حزيران عام ١٩٦٣ (١٥ خرداد، ١٣٤٢ هـ. ش)، اذ يقول حفظه الله:

«اننا نرى بوضوح ــ اليوم أكثر من أي وقت مضى ــ أبعاد صدور الثورة الاسلامية الى عالم الاستضعاف والمستضعفين، وان الحركة التي بدأها مستضعفو ومظلومو العالم ضد المستكبرين والمتعنتين لهي في طريقها الى التوسع.

ان الأمل واضح، ووعد الله يقترب شيئًا فشيئًا. وكأن العالم يتهيأ لطلوع شمس الولاية من أفق مكة المعظمة وكعبة آمال المحرومين وحكومة المستضعفين».

وفي الختام نأمل أن يستقر حكم الله سبحانه وتعالى وعباده الصالحين في الأرض، ويدفن الكفر والاستكبار ــ الى الأبد ــ في مقبرة التاريخ السوداء.

آمين يا رب العالمين

الفهرست

الموضوع

منظمة الاعلام الاسلامي
معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية
طهران۔ ص.ب۔ ١٤١٥٥/١٣١٣
الجمهورية الاسلامية في ايران

السعر : ٢٥٠ ريال